برنارد ماندفيل

رسالة إلى دِيون

وكتابات أخرى

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

رسـالة إلى دِيـون
وكتابات أخَرى

برنارد ماندفيل

عبد الرحيم يوسف/ شاعر ومترجم مصري من مواليد الإسكندرية في 1975، تخرج من كلية التربية قسم اللغة الإنجليزية وعمل مدرسا بوزارة التربية والتعليم عشرين عاما ثم تقاعد وتفرغ للترجمة. صدر له سبعة دواوين واثنان وعشرون كتابا مترجما وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية عام 2017 عن ترجمته لكتاب برنارد ماندفيل "ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة" الصادر عن صفصافة في 2014.

.....

رسـالة إلى ديـون

طبعة 2022

رقم الإيـــداع: 2021/25146

الترقيم الدولي: 978-977-821-228-0

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This book contains three works of Bernard Mandville: his famous poem The Fable of the Bees, his book Aesop Dressed which contains thirty nine fables in prose, and his last published work A Letter to Dion.

The publisher gratefully acknowledge the support of the Dutch Foundation for Literature

تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

برنارد ماندفيل

رسـالة إلى دِيـون

وكتابات أخرى

ترجمة

عبد الرحيم يوسف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

ماندفيل، برنارد
رسالة إلى دِيون: وكتابات أخرى/ برنارد ماندفيل،
ترجمة: عبد الرحيم يوسف
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٢١٢ ص، ٢٠ سم
تدمك ٠-٢٢٨-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- المقالات الانجليزية
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)
ب- العنوان
٢٢٤
رقم الإيداع: ٢٥١٤٦/ ٢٠٢١

المحتويـــات

7	مقدمة المترجم
15	أمثولة النحل
51	في ثوب إيسوب
117	رسالة إلى ديون

مقدمة المترجم

مرة أخرى بعد سبع سنوات أعود إلى برنارد ماندفيل! كان لقاؤنا الأول في عام 2014 حين ترجمت كتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) الذي ضم ثلاثة مقالات طويلة لماندفيل هي: *(بحث في أصل الفضيلة الأخلاقية)* و*(بحث في طبيعة المجتمع)* و*(مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية)*. نُشر الكتاب في سبتمبر من نفس العام، وفي عام 2017 حصلت عن ترجمته له على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام 2016 (حيث تُقدم الجائزة في العام التالي على عام التقديم لكنها تحمل رسميا تاريخ عام التقديم، وتلك حكاية أخرى!). وفي عام 2017 أيضا صدرت طبعة أخرى للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة في الأردن.

إذًا يمكنني القول إن ماندفيل وكتابه على الرغم من صعوبة ترجمته كانا مصدريّ سعادة وحظ كبيرين لي. وفي العام الماضي اقترح عليّ الصديق محمد البعلي مدير دار صفصافة التي نُشر عنها كتاب (ثلاث دراسات...) معاودة اللقاء مع ماندفيل. فكرت قليلا وتذكرت صعوبة التعامل مع لغة وأسلوب ماندفيل، لكني كنت أحس بشكل ما أني مدين للرجل بالكثير. لذا فقد وافقت وبحثت واخترت ثلاثة أعمال لترجمتها: قصيدته الشهيرة (أمثولة النحل) التي أثارت ضده هجوما عنيفا ودفعته

لكتابة الكثير من مقالاته ودراساته ردا على هذا الهجوم، ومن ضمن هذه المقالات الدراسات الثلاث التي ترجمتها في كتابي المشار إليه، والعمل الثاني الذي اخترت ترجمته هو مجموعة من الأمثولات التي كتبها تحت عنوان (في ثوب إيسوب) في إشارة إلى ذلك الكاتب الإغريقي الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد ونُسبت إليه تلك الحكايات المسماة بـ «خرافات إيسوب» ويقال إنه وُلد عبدا و لم يكتب الأساطير بنفسه. لكنها أصبحت جزءًا من التقاليد الشفوية لتلاوة القصص التي دُونت في آخر الأمر من قبل معاصريه. يكتب ماندفيل تسعة وثلاثين أمثولة أو حكاية خرافية ويعترف في مقدمته أن اثنتين منهما فقط من إبداعه والبقية هي معالجة صاغها شعرا ونثرا مسجوعا في أغلبه لحكايات إيسوب. أما العمل الثالث الذي أقدمه فهو (رسالة إلى ديون) وهو آخر ما نشره ماندفيل، وجاءت هذه الرسالة ردا على كتاب بعنوان *(ألسيفرون، الفيلسوف الدقيق)* كتبه الأسقف بيركلي تحت اسم مستعار: (ديون)، والذي حملت إحدى محاوراته هجوما عنيفا على ماندفيل وكتابه أمثولة النحل. يدافع ماندفيل هنا عن نفسه وعن كتابه ويوضح أفكاره ومقاصده بطريقته الساخرة واللاذعة والجادة كذلك. وقد ضمنت هذا الجزء مقدمة كتبها جاكوب فاينر *Jacob Viner*.

أود هنا أن أقتبس من مقدمتي لكتاب ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة الجزء الخاص بالتعريف بماندفيل مع بعض التعديل، محاكيا طريقته في الاقتباس كثيرا من أعماله السابقة:

برنارد ماندفيل أو **برنارد دي ماندفيل** هو فيلسوف وعالم اقتصاد سياسي وكاتب ساخر هولندي. وُلد في روتردام (وفي رواية أخرى دوردريخت) في الخامس عشر من نوفمبر عام 1670، وعاش أغلب حياته في انجلترا وكتب ونشر معظم أعماله بالإنجليزية. ورغم أن اسم (ماندفيل) يوحي بأصول فرنسية إلا أن أسلافه عاشوا في هولندا منذ القرن السادس عشر على الأقل.

كان والده طبيبا بارزا في روتردام بهولندا. وسار برنارد على درب أبيه فحصل على درجته العلمية في الطب عام 1691 بعد أن قدم خلال دراسته عددا من الأطروحات المثيرة للجدل حملت إحداها عنوان (الأفعال اللاعقلانية) والتي دافع فيها عن النظرية الديكارتية للسلوك التلقائي بين الحيوانات. ثم انتقل إلى انجلترا لتعلم اللغة؛ وهو ما نجح فيه بشكل فائق حتى أن الكثيرين من الإنجليز لم يصدقوا أبدا أنه أجنبي. وفي عام 1693 تم نفي والده من روتردام بعد أن ثبت اشتراكه في أحداث تمرد اندلعت في الخامس من أكتوبر عام 1690 ربما يكون برنارد نفسه قد شارك فيها.

ورغم أنه كان طبيبا محترما إلا أنه لم يكسب الكثير من عمله كطبيب، وعاش حياة متقشفة على معاش منحه إياه بعض التجار الهولنديون وما كان يحصل عليه من مُقطِّري الخمور نظير دفاعه عن فائدة المشروبات الروحية. وقد أكسبته قدراته الجدالية صداقة توماس باركر (لورد ماكليسفيلد ورئيس المحكمة العليا

في الفترة من 1710 إلى 1718) والذي عرَّفه بدوره على الكاتب والسياسي جوزيف آديسون الذي أسس مع ريتشارد ستيل مجلة (ذي سبيكتاتور).

أشهر أعماله هو كتابه (أمثولة النحل) الذي كانت بدايته قصيدة شعرية حلمنتيشية من مائتي مقطع بعنوان (الخلية المتذمرة أو المحتالون ينقلبون شرفاء) نشرها عام 1705 في كراسة من عشر صفحات بيعت بستة بنسات، وتُصوِّر جماعة من النحل تزدهر أمورها وتتطور حتى تغدو كلها فجأة شريفة وفاضلة، لكن مع انعدام رغبة أفرادها في المكسب الشخصي ينهار اقتصاد الخلية ويلجأ الباقي من النحل إلى جذع شجرة مجوفة ليعيشوا حياة بسيطة، في إشارة ضمنية إلى أنه بدون الرذائل الخاصة لن توجد منافع عامة. ثم أعاد نشرها عام 1714 كجزء تكميلي لكتابه (أمثولة النحل أو الرذائل الخاصة والمنافع العامة) الذي اشتمل على تعليق نثري بعنوان «الملاحظات» ومقال «بحث في أصل الفضيلة الأخلاقية». وفي طبعة لاحقة ظهرت عام 1727 تضمن الكتاب «مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية» و«بحث في طبيعة المجتمع». أثار الكتاب اعتراضات قوية حتى أنه خضع لدعوى قضائية عام 1729 بتهمة النزعة غير الأخلاقية. واعتبرته هيئة المحلفين الكبرى في (ميدلسكس) كتابا مزعجا، وهاجمه العديد من الكُتَّاب في الصحف ثم في فصول من كتبهم. ومع ذلك ظل الكتاب يُطبَع وظهرت الطبعة التاسعة منه عام 1755 وطُبع بعدها كثيرا. وقد وصفه المؤرخ الأمريكي ويل

ديورانت في مجلد عصر فولتير بموسوعة قصة الحضارة بأنه أقذع ما كُتب من تحليلات للطبيعة البشرية.

أثارت فلسفة ماندفيل الكثير من الاستياء في زمنه، وكثيرا ما وُصمت بأنها زائفة ومتشائمة ومخزية. وكانت فرضيته الأساسية هي أن أفعال البشر لا يمكن تقسيمها إلى أسمى وأدنى، وأن حياة الإنسان الأسمى هي مجرد خيال خلقه الفلاسفة والحُكَّام لتبسيط مفهوم الحكومة والعلاقات في المجتمع. وأن الفضيلة *(التي يُعرِّفها ماندفيل بأنها كل أداء يسعى به الإنسان – بالمخالفة لبواعث الطبيعة – إلى فائدة الآخرين، أو إلى إخضاع عواطفه الشخصية من منطلق طموح عقلاني لأن يكون صالحا)* هي في *الحقيقة معيقة لتقدم الدولة التجاري والفكري؛ لأن الرذائل* – مثل أفعال البشر التي تراعي صالحهم الشخصي فقط– هي التي تدفع المجتمع نحو التقدم عبر الابتكار وتدوير رأس المال في البحث عن الرفاهية والحياة الفخمة. وهكذا تكون الرذائل الشخصية سببا يؤدي إلى المنافع العامة. وتبدو وجهة نظره أكثر حدة عند مقارنتها بآراء آدم سميث (1723 – *1790*). فكلاهما *يؤمن بأن أفعال الأفراد الجماعية تجلب المنفعة العامة، لكن ما يفصل بين فلسفة الاثنين هو العامل المحفز لتلك المنفعة. فبينما كان سميث يعتقد أن وراء هذا التعاون غير المرئي اهتمام شخصي ذو طبيعة خيِّرة، رأى ماندفيل أن ما* يدفع نحو *ذاك التعاون هو الطمع الشرير وذلك إذا تم توجيهه بشكل سليم. هذا الاشتراط الخاص بالتوجيه السليم هو فرق آخر بين طرح ماندفيل وموقف*

سميث المنادي بحرية السوق والمتمثل في مقولته "دعه يعمل دعه يمر". فماندفيل بشكل أساسي يدعو السياسيين لضمان أن تؤدي العواطف والميول البشرية إلى المنفعة العامة. كان اعتقاده الذي ذكره في خرافة النحل هو أنه "من الممكن عبر الإدارة الحاذقة لسياسي ماهر أن تتحول الرذائل الشخصية إلى منافع عامة". كما كان ماندفيل من أوائل من تكلموا عن تقسيم العمل، وقد استفاد سميث من بعض أمثلته في معرض حديثه هو أيضا عن تقسيم العمل.

كانت آراء ماندفيل صادمة للرأي العام، ولم تفلح كتاباته الأخيرة (أفكار حرة حول الدين 1720) و(بحث في أصل الشرف وفائدة المسيحية 1732) في أن تقلل من حدة هجوم منتقديه. وفي الوقت الذي تبدو فيه مفارقات ماندفيل الساخرة شيقة بشكل أساسي لانتقادها المثالية (اللطيفة) للورد شافتسبري، فإنها تبدو كذلك أكثر حيوية عند مقارنتها بالأنساق الفكرية الجادة والنرجسية لمفكرين مثل توماس هوبز (1588 – 1679). لا يمكن إنكار أن ماندفيل كانت له بصيرة فلسفية كبيرة، لكنه في الوقت نفسه كان انتقاديا وهداما إلى حد كبير، وكما قال هو نفسه أنه كان يكتب "من أجل إمتاع أهل المعرفة والتعليم". ويمكن القول عنه باختصار أنه أزاح العقبات من أمام مذهب النفعية القادم من بعده. وقد توفي ماندفيل في 21 يناير 1733 عن 62 عاما بعد إصابته بالأنفلونزا.

الجدير بالذكر أن الفيلسوف والاقتصادي النمساوي الشهير والحاصل على نوبل عام 1974 فريدريش فون هايك (1899 – 1992) *أشاد كثيرا بأفكار ماندفيل عن المجتمع والسياسة في كتابه (القانون والتشريع والحرية 1974)*.

أخيرا فقد سعيت في ترجمتي لقصيدة أمثولة النحل إلى الحفاظ على وجود القافية التي تتغير كل بيتين غالبا كما في الأصل، وقد حاولت جاهدا أن يكون هذا ضمن حدود المعنى والمبنى للنص الأصلي. وفي ترجمتي للأمثولات تخففت غالبا من سجعها ملتزما بالمعنى إلا إذا جاء السجع دون تكلف محاولا الاقتراب من أسلوب الكاتب المفضل في كتابته للحكايات. وجاءت ترجمة الجزء الثالث دون هذا الجانب غالبا لكونها مقالة لم يسع ماندفيل لتسجيعها ولا تقفيتها، وإن استمرت جمله الطويلة وطرائقه البلاغية الملفتة وحس الدعابة الغالب عليه رغم جديته. وفي هذا أرجو أن أكون قد أوفيت الرجل بعض دينه وما سببه لي من سعادة من حيث لا يدري!

عبد الرحيم يوسف

الإسكندرية

في أغسطس 2021

أمثولة النحل

(الخلية المتذمرة، أو المحتالون ينقلبون شرفاء)

مقدمة

مَثَل القوانين والحكومة للكيانات السياسية والمجتمعات المتحضرة، كمَثَل الأرواح الجوهرية والحياة نفسها في الأجساد الطبيعية للمخلوقات الحية. وكما يمكن لهؤلاء الذين يدرسون تشريح الجثامين الميتة، فإن الأعضاء الرئيسية والنوابض الأدق المطلوبة على نحو أكثر إلحاحا من أجل استمرار حركة آلاتنا، ليست العظام الصلبة والعضلات القوية والأعصاب، ولا الجلد الأبيض الناعم الذي يغطيها على نحو جميل، بل أغشية هزيلة وأنابيب صغيرة إما يتم تجاهلها، أو تبدو لا شأن لها يستحق أن توضع في الاعتبار بالنسبة لأعين الرعاع؛ لذا فإنه بالنسبة لهؤلاء الذين يدرسون طبيعة الإنسان، مجردة عن الفن والتعليم، قد يلاحظون أن ما يجعله حيوانا اجتماعيا لا يكمن في رغبته في الصحبة والخصال الطيبة والشفقة والأنس وغيرها من الشمائل ذات المظهر الطيب؛ بل إن أحط خصاله وأبغضها هي أكثر المهارات ضرورة لإعداده من أجل أكبر وأسعد وأكثر المجتمعات ازدهارا.. كما يرى العالم.

الأمثولة التالية، التي صغت فيها بتوسع ما قلته للتو، طُبعت منذ أكثر من ثماني سنوات[1] في كتيب ثمنه ستة بنسات، بعنوان (الخلية المتذمرة، أو المحتالون ينقلبون شرفاء) وسرعان ما جرت قرصنتها بعد ذلك، ونودي عليها في الشوارع مطبوعة في ورقة صحيفة بنصف بنس. ومنذ نشرها الأول قابلت عديدا من الأشخاص يخطئون القصد منها إما عن عمد أو عن جهل، ويرون أنها هجاء تهكمي للفضيلة والأخلاق، وأنها كُتبت بشكل عام لتشجيع الرذيلة. جعلني هذا أقرر أنه متى قُدر لها أن تعاد طباعتها، عليّ أن أحيط القارئ علما بطريقة أو بأخرى بالمقصد الحقيقي الذي كتبت من أجله هذه القصيدة الصغيرة. وأنا لا أضفي شرفا على هذه السطور القليلة المفككة بتسميتها (قصيدة)، بحيث أجعل القارئ يتوقع أي شعر فيها، لكن فقط لأن بها قافية، وأنا في الواقع متحير أي اسم أمنحها إياه؛ لأنها ليست ملحمية ولا رعوية، ليست هجاء تهكميا ولا قصيدة هزلية ولا ملحمية كوميدية؛ وكي تكون حكاية يلزمها الاحتمالية، وهي في مجموعها أطول قليلا من أن تكون أمثولة. كل ما يمكنني أن أقوله عنها أنها قصة محكية في قالب شعري هزلي، سعيت -بلا أدنى نية في التذاكي- أن أصيغها بأسلوب سهل ومألوف قدر استطاعتي.. والقارئ مدعو على الرحب والسعة لأن يطلق

1- كُتبت هذه المقدمة عام 1714.

عليها ما يشاء ويرضى. قيل عن مونتين[2] إنه كان ضليعا جدا في وصف مثالب البشر، لكنه غير ملم بمفاخر الطبيعة البشرية: إذا لم أخشى مما هو أسوأ، فأعتقد في نفسي أني ملم جيدا بالاثنين.

ترى أي بلد في العالم ستُفهم على أنها مقصودة بخلية النحل الماثلة هنا؟ من الواضح مما يقال عن قوانينها ودستورها، عن المجد والثراء والقوة والصناعة والمهارة لدى سكانها، أنها لا بد وأن تكون أمة كبيرة وثرية ومحاربة، وأنها تسعد بحكم مَلَكية محدودة. وبالتالي فإن السخرية التي سنقابلها في السطور التالية من المهن والحِرف العديدة، وتقريبا من كل درجات ومراتب الناس، لم تُوجه بقصد الإضرار والإشارة لأشخاص معينين، بل فقط لإظهار لؤم المكونات التي تؤلف سويا المزيج الناجع لأي مجتمع حسن التنظيم؛ من أجل تمجيد القوة الرائعة للحكمة السياسية، والتي بمساعدتها تنهض أي آلة بشكل بالغ الروعة من أحقر التشعبات. أما المقصد الرئيسي للأمثولة (كما هو موضح باختصار في مقطع العِبرة) فهو إظهار استحالة التمتع بكافة أطايب الحياة الأرقى التي يمكن أن نلاقيها في أي أمة مجتهدة ثرية قوية، وأن ننعم في نفس الوقت بكل الفضيلة والبراءة التي يمكن أن نتمناها في عصر ذهبي؛ ومن ثمَّ فضْح لا معقولية

2- ميشيل دي مونتين (1533-1592) أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة الفرنسي. رائد المقالة الحديثة في أوروبا. وكان يقلد اليونانيين والكلاسيكيين في عادتهم في رصف الحكم والأمثال في ثوب مسجوع، وتأثر كثيراً بكتابات أرسطو.

وحماقة هؤلاء الذين يرغبون في أن يكونوا أناسا يتمتعون بالوفرة والازدهار، ويتطلعون بطمع عجيب إلى كل الفوائد التي يمكنهم الحصول عليها هكذا، ولكنهم دائما يتذمرون ويتعجبون من تلك الرذائل والمنغصات التي -منذ بدء العالم وحتى يومنا الحاضر- لم يكن من الممكن فصلها عن كل الممالك والدول التي اشتهرت دائما بالقوة والثروات والتهذيب في نفس الوقت.

وكي أحقق هذا، أتلمس بخفة في البداية بعضا من العيوب وأوجه الفساد المتهمة بها مهن وحرف عديدة بشكل عام. بعد ذلك أبين أن تلك الرذائل ذاتها لدى كل شخص بعينه جُعلت بالإدارة الماهرة خاضعة ونافعة للعظمة والسعادة الدنيوية للجميع. أخيرا، بإبراز ما لا بد بالضرورة أن تكون عليه عواقب شيوع الأمانة والفضيلة، والزهد القومي، والبراءة والرضا، أُظهر أنه لو أمكن للجنس البشري أن يُشفى من العيوب التي يشعر بالذنب تجاهها على نحو طبيعي، فلن يغدو قادرا على الارتفاع إلى تلك المجتمعات الهائلة والقوية والمهذبة، كما كان في ظل الدول والممالك التي ازدهرت منذ الخليقة.

لو سألتني: لـماذا فـعلت كل هذا، لمـصلحة من؟ وأي خير ستنتجه هذه الأفـكار؟ في الحـقيقة، لا أعتقد أنها تنتج شيئا على الإطلاق؛ غير تـسلية القارئ؛ لكن لو سـئلت: ماذا ينبـغي توقعه منها بشكل طبـيعي، لأجبت بأنه في المـقام الأول بعـد قـراءتها

سيتعلم الناس الذين يجدون الخطأ دائما لدى الآخرين، أن ينظروا إلى أنفسهم، ويتفحصوا ضمائرهم، وأن يشعروا بالخجل من هجومهم الدائم على ما هم غالبا مذنبون به.. هم أنفسهم. وفي المقام التالي، بالنسبة لهؤلاء المغرمين للغاية بالراحة وأطايب العيش، ويحصدون كل الفوائد الناتجة من أمة عظيمة ومزدهرة، سيتعلمون أن يتقبلوا بطريقة أكثر صبرا تلك المنغصات التي لا يمكن لأي حكومة على وجه الأرض أن تعالجها، عندما يرون استحالة التمتع بأي نصيب كبير من الأولى، دون أن يتقاسموا نصيبا مماثلا من الثانية.

هذا ما أقول إنه ينبغي توقعه بشكل طبيعي من نشر هذه الأفكار، لو أن الناس كانوا يصبحون أفضل عن طريق أي شيء يمكن أن يقال لهم؛ لكن الجنس البشري ظل لعصور كثيرة جدا هو نفسه، على الرغم من الكتابات العديدة الموجهة والبليغة، والتي قُصد بها إصلاحه، وأنا لست بهذا القدر من الغرور الذي يجعلني آمل في نجاح أفضل من وراء شيء بسيط تافه بكل هذا التواضع.

بعد أن بينت الميزة الضئيلة التي من المحتمل أن تحققها هذه النزوة الصغيرة، أعتقد أني ملزم بأن أبين أنها لا يمكن أن تكون ضارة بأي أحد؛ لأن ما يُنشر -إذا لم يكن يحقق أي خير- فيجب على الأقل ألا يتسبب في أي ضرر. ومن أجل هذا كتبت بعض

الملاحظات الشارحة، سيجد القارئ نفسه إشارة إليها في تلك المقاطع التي يبدو أنها الأكثر عرضة للاستثناءات.

الشخص الانتقادي القاسي الذي لم ير قط (الخلية المتذمرة) سيقول لي إن أيا ما يمكن أن أقوله عن الأمثولة، التي لا تستغرق عُشر الكتاب، فهو مدبر فقط لتقديم (الملاحظات)؛ وأنه بدلا من توضيح مواضع الشك أو الغموض، لم أفعل إلا أن زودتها بما أني اخترت أن أسهب فيها، وأني بدلا من أن أسعى لتخفيف الأخطاء المرتكبة من قبل، جعلت من السيء أسوأ، وأظهرت نفسي كمدافع صفيق عن الرذيلة، في تلك الاستطرادات المطنبة، بشكل أكبر مما فعلت في الأمثولة نفسها.

لن أضيع أي وقت في الإجابة عن هذه الاتهامات؛ فعندما يكون البشر متحاملين، تذهب أفضل الاعتذارات سدى، وأنا أعرف أن هؤلاء الذين يعتقدون أنه من الإجرام افتراض ضرورة الرذيلة في أي حال مهما كان، لن يتصالحوا أبدا مع أي جزء من العمل؛ لكن لو جرى تدارس هذا بشكل تام، فإن كل الإساءة التي يمكن أن تصدر عنه لا بد أن تنتج عن الاستدلالات الخاطئة التي يمكن أن تُشتق منه، والتي لا أرغب لأحد أن يقوم بها. عندما أؤكد أن الرذائل ملازمة للمجتمعات العظيمة والقوية، وأنه من المستحيل أن توجد ثروتها وعظمتها بدونها، فأنا لا أقول إن أعضاء بأعينهم في هذه المجتمعات من المذنبين بأي من هذه الرذائل لا ينبغي

أن يوبَخوا باستمرار، أو ألا يعاقَبوا عنها إذا استفحلت وبلغت حد الجرائم.

أعتقد أن هناك أشخاصا قلائل في لندن من هؤلاء الذين قلَّما يضطرون للسير على أقدامهم، لكنهم يتمنون لو كانت الشوارع أنظف كثيرا مما هي عليه بشكل عام، حيث لا يهتمون بشيء غير ملابسهم وراحتهم الخاصة، لكن ما إن يتبادر إلى أذهانهم أن ما يسيء إليهم ويزعجهم هو نتاج الكثرة وحركة المرور الكبيرة والثراء المميزين لهذه المدينة الجبارة، لو كان لديهم أي اهتمام بصالحها ورخائها، فلن يتمنوا أبدا أن يروا شوارعها أقل قذارة. لأننا لو وضعنا في اعتبارنا المواد من كافة الأنواع التي لا بد أن تغذي هذا العدد اللانهائي من المهن والحرف اليدوية، وهي تتزايد دائما؛ والكمية الهائلة من الأطعمة والمشروبات والوقود المستهلكين يوميا فيها، والمخلفات والفضلات التي لا بد وأن تنتج عنها؛ وحشود الخيول والبهائم الأخرى التي تدب في الشوارع دومًا، والعربات والمركبات والمقطورات الأثقل التي تُبلي وتكسر على الدوام رصفها، وفوق كل ذلك الجموع التي لا حصر لها من الناس التي تتدافع باستمرار وتسحق كل جزء منها. أقول لو وضعنا في اعتبارنا كل هذه الأشياء، سنجد أن كل لحظة لا بد وأن تنتج قذارة جديدة؛ وإذا وضعنا في اعتبارنا كم تبعد الشوارع الكبرى كثيرا عن ضفة النهر، ومقدار التكلفة والعناية اللذين يجب إيلائهما من أجل إزالة الوسخ بنفس السرعة التي

يجري إنتاجه بها تقريبا؛ فمن المستحيل أن تكون لندن أنظف قبل أن تكون أقل ازدهارا. والآن هل يمكنني أن أتساءل إن كان هناك مواطن صالح، في ضوء ما قيل للتوّ، قد لا يؤكد أن الشوارع القذرة شر لا بد منه وغير قابل للانفصال عن هناءة لندن، دون أن تمثل أقل عائق أمام تنظيف الأحذية، أو كنس الشوارع، وبالتالي دون أي تحامل سواء تجاه ماسحي الأحذية أو الزبالين؟

لكن لو طُرح عليّ سؤال، دون أي اعتبار لمصلحة وسعادة المدينة، عن أي مكان أعتقد أنه الأجمل للسير فيه؟ لا يمكن لأحد أن يشك، قبل شوارع لندن كريهة الرائحة، سأفكر في حديقة عبقة، أو بستان ظليل في الريف. على نفس المنوال، لو وضعنا جانبا كل العظمة الدنيوية والمجد الزائف، ينبغي أن أُسأل أين أظن أنه يمكن للبشر على أكبر احتمال أن يستمتعوا بالسعادة الحقة، وعندئذ سأفضل مجتمعا صغيرا مسالما، فيه ينبغي أن يكون الناس غير محسودين ولا مبجلين على نحو زائد من جيرانهم، ويكونون راضين بالعيش على المنتجات الطبيعية للبقعة التي يسكنونها، أفضل هذا المجتمع عن حشد هائل من الناس يتنامون في الثروة والقوة، ودائما ما يغزون الآخرين بجيوشهم في الخارج، ويفسدون أنفسهم بسبل الترفيه الأجنبية في الوطن.

عند هذا الحد توقفت في الحديث إلى القارئ في الطبعة الأولى، ولم أضف شيئا في مقدمة الطبعة الثانية. لكن منذ ذلك الوقت، انطلقت صيحة احتجاج عنيفة ضد الكتاب، تستجيب

تماما للتوقعات التي كانت لديّ دائما تجاه العدالة والحكمة والإحسان والتعامل العادل من جهة هؤلاء الذين طالما يئست من حسن نواياهم. قُدم هذا الاحتجاج بواسطة (هيئة المحلفين العليا) وأدين الكتاب على يد آلاف لم يروا كلمة واحدة منه قط. وألقيت موعظة ضده أمام سيدي العمدة، وثمة دحض له متوقع أن يصدر يوميا عن كاهن موقر، شتمني ووصفني بأقذع الألفاظ في الإعلانات، وتوعد بالرد عليّ خلال شهرين لأكثر من خمسة شهور متوالية.[3] ما يجب عليّ أن أقوله لنفسي، سيراه القارئ في دفاعي[4] المثبت في نهاية الكتاب، حيث سيجد بالمثل بلاغ هيئة المحلفين العليا، وخطابا إلى اللورد المحترم

3- يوم الإثنين 12 أغسطس 1723، نشرت جريدة (ترو بريتون/ البريطاني الأصلي)، إعلانا جاء فيه أنه «سيُطبع بالاكتتاب دفاع عن المدارس الخيرية. سيتم فيه الرد بشكل كامل وواضح على الاعتراضات الكثيرة الخاطئة والفاضحة والخبيثة من قبل هؤلاء المدافعين عن الجهل وقلة الدين، مؤلف (أمثولة النحل) وخطاب كاتو في جريدة (بريتيش جورنال) بتاريخ 15 يونيو 1723... سيأتي الرد بقلم و. هندلي؛ المحاضر في كنيسة القديسة مريم العذراء في إيسلنجتون... ملحوظة... سيصدر الكتاب خلال شهرين...» – تكرر الإعلان في أيام 16 و26 أغسطس و2 سبتمبر. ومع ذلك لم يظهر الكتاب حتى أغسطس 1724 تقريبا، ليس قبل أن تعلن جريدة (بوست بوي) في الفترة من 8 إلى 25 يوليو بأنه «يُنشر هذا اليوم». وبالتالي فإن حديث ماندفيل عن الشهور الخمسة لم يكن من قبيل المبالغة. تضبط نكتة ماندفيل التاريخ عندما أضاف هذا المقطع إلى مقدمته. لا بد وأنه قد مرت خمسة شهور بعد الظهور الأول للإعلان، أو بالضبط قبل صدور طبعة 1724، التي طُرحت للبيع يوم 18 يناير 1724.

4- عن هذا الدفاع يكتب ماندفيل في موضع آخر (رسالة إلى ديون): « في البداية خرجت أمثولة النحل في جريدة[لندن جورنال بتاريخ 10 أغسطس 1723]؛ ثم نشرتها في كتيب يباع بستة بنسات، ومعه كلمات البلاغ المقدم من هيئة المحلفين العليا وخطاب جارح بذيء إلى اللورد ك. ظهر بعده مباشرة [27 يوليو 1723 في لندن جورنال؛ نُشر البلاغ 11 يوليو في جريدة إيفيننج بوست]... وحرصت على طباعة هذا بطريقة مميزة، من ناحية الحرف والشكل، لتكون في مصلحة المشترين بحيث يمكنهم طيها بشكل مريح، وأن تبدو كقطعة واحدة مع الطبعة الأخيرة وقتذاك، والتي كانت الثانية" كانت في الحقيقة الطبعة الثالثة.

الحقيقي *ك.*[5] وهو خطاب بليغ جدا يتجاوز أي جدال أو ترابط. يُظهر الكاتب موهبة طيبة في الذم، ودهاء عظيما في اكتشاف الكفر، حيث لا يمكن للآخرين أن يجدوه. وهو غيور متعصب ضد الكتب الشريرة، مشيرا إلى (أمثولة النحل)، وغاضب بشدة من المؤلف: *ويضفي أربعة نعوت قوية على ضخامة ذنبه، ويلقي بالعديد من التلميحات الأنيقة للجماهير، حيث يكمن الخطر في معاناة ترك مثل هؤلاء المؤلفين أحياء، وأن انتقام السماء سيحل فوق أمة بأكملها، ويوصي بطريقة محسنة جدا أن يتولوه برعايتهم.*

نظرا لطول هذه الرسالة الإنجيلية، وإلى أنها ليست موجهة في مجملها إليّ أنا فقط، فكرت في البداية أن أقوم بانتزاع بعض المقتطفات منها من تلك الأجزاء المتعلقة بي، لكن بعد أن وجدت، في تساؤل أحدث، أن ما يخصني كان مختلطا جدا ومشتبكا بما لم يخصني، اضطررت لإزعاج القارئ بها كاملة، دون أن أعدم الآمال، رغم إسهابها، في أن يكون إسرافها مسليا لهؤلاء الذين طالعوا الأطروحة التي تدينها هذه الرسالة برعب بالغ.

5- يبدو أن ماندفيل اعتقد أن «اللورد ك.» هو ذلك البارون الهانوفري القوي: البارون كارتيريه -الذي ينطبق عليه لقب «المحترم الحقيقي»- لأنه يشير، فيما يتصل بالخطاب المذكور، إلى «السلام في الشمال» و«الإبحار» وهما مسألتان مرتبطتان بشدة بكارتيريه؛ الذي كان قد أقر «السلام» وفتح بحر البلطيق للإبحار الإنجليزي. الإشارة المزدوجة، التي لا يقترحها السياق مع ذلك، من غير المحتمل أن تكون نتاجا للصدفة المحضة.

الخلية المتذمرة، أو المحتالون ينقلبون
شرفاء (1705)

خلية رحبة محتشدة بالنحل
الذي عاش في رغد من العيش سهل
وبقدر ما اشتهرت بالقوانين وقوة الذخيرة
بقدر ما كانت تنتج أسرابا نشيطة وكبيرة
وكانت تُعتبر الحضانة العظمى
للعلوم والصناعات الأسمى.
لم يكن لدى أي أمة أخرى من النحل حكومة أفضل
ولا تقلب أكثر، ولا رضا أقل.
لم يكونوا عبيدا للاستبداد مؤونة
ولا تحكمهم الديمقراطية المجنونة،
بل يحكمهم ملوك ليس بوسعهم أن يكونوا مخطئين
لأن سلطتهم كانت مقيدة بالقوانين.

عاشت هذه الحشرات مثل البشر
وكانت تؤدي جميع أفعالنا على صِغَر
كانت تؤدي كل ما يؤدى في المدينة
وما له علاقة بالسيف أو ثياب القضاة الرزينة:
رغم أن هذه الأعمال المتقنة بالأطراف الدقيقة النحيلة
كانت تغيب عن أنظار البشر الكليلة
لكن ليس لدينا من محركات أو عاملين
أو سفن أو قلاع أو عتاد أو حرفيين
أو حرفة أو علم أو محل أو آلة
إلا كان لديهم نظير له:
والذي لا بد أن ندعوه كما نفعل بلساننا
بما أن لسانهم مجهول لنا.
كما هو معروف، من بين أشياء أخرى
كانوا يرغبون في اللهو، لكن كان لهم ملوك تترى
ولهؤلاء الملوك حراس، وقد نستنتج من هذا دون لغو
أنهم كانوا يحظون ببعض اللعب واللهو
إلا إذا ظهر فوج من الجنود
الذين لا يجدون في هذا شيئا يفيد.

ملأت أعداد غفيرة هذه الخلية الغنية الثمار
لكن هذه الأعداد الغفيرة دفعتهم للنمو والازدهار
ملايين تسعى لإشباع
رغبات بعضهم البعض وسقط المتاع؛
بينما كانت ملايين أخرى يجري تشغيلها كمدا
لترى نتاجات عمل أياديها تضيع بددا
ملأوا نصف الدنيا مفلحين
لكن كان لديهم عمل أكثر من العمال الكادحين
بعضهم لديهم ثروات هائلة، ومشاق قليلة
قفزوا إلى العمل والتجارة محققين مكاسب جليلة،
وبعضهم كان محكوما عليه بالمناجل والمجارف
وكل هذه المهن الشاقة والطوائف؛
حيث التعساء المستعدون يوميا يعرقون
ويُهلكون قوَّتهم وأطرافهم كي يجدوا ما يأكلون،
بينما تتبع آخرون الألغاز والطواسين
التي لزمتها بضعة أقوام كالمريدين
لا يريدون أي عِزوة، غير المال
وقد ينطلقون في الحياة دون مليم في السروال
كالنصابين والطفيليين والقوادين واللاعبين

والنشالين والمزورين والدجالين والعرافين،
وكل هؤلاء الذين في عداء
مع العمل الشريف، وبدهاء
يحولون إلى مصلحتهم ونفعهم
كدَّ الغافلين الطيبين من جيرانهم:
كان هؤلاء يُدعون بالمحتالين؛ لكن فيما عدا الاسم
كان الكادحون المجدون بنفس الوسم والرسم
كل المهن والأماكن عرفت بعض الخداع
لم تكن هناك حرفة دون غش واتضاع.

المحامون، الذين كان أساس فنونهم المهنية
إثارة الخلافات والقضايا الانقسامية،
عارضوا السجلات، حتى يمكن لحالات الغش والمثالب
أن تزدهر مع المال السائب،
وكانوا أنذالا مجرمين، حتى أنهم
وبدون رداء المحاماة، يمكن تمييزهم.
وكانوا يتهربون من الجلسات متعمدين
ليذكروا بالأجرة الباقية المتقاضين،
وكي يدافعوا عن قضية فاسدة لواحد من الفاسدين

كانوا يفحصون ويدرسون القوانين
كما يفعل اللصوص بالمحلات والمنازل بالتمام
ليكتشفوا أفضل مكان للاقتحام.

أما الأطباء فكانوا يثمنون الشهرة والثروة
أكثر من صحة المريض الرخوة،
أو مهارتهم الشخصية: الجزء الأكبر
الذي درسوه، بدلا من قواعد الممارسة الأخطر،
تلك النظرات المتأملة الوقورة، والسلوكيات البليدة الحائلة؛
لاكتساب عطف الصيادلة،
ومديح القابلات والكهنة وكافة الفئات
ممن يعملون في الولادات أو الجنازات؛
ولتحمُّل هؤلاء القوم الذين لا يكفون عن الكلام واللجاج
وسماع عمة سيدتي وهي تصف العلاج،
بابتسامة رسمية، وسؤال لطيف عن الحال؛
للتودد للعائلة كلها بالسؤال،
واللعنة الأكبر وسط كل هذه المنغصات
تحمُّل سفاهة الممرضات.

من بين كهنة جوبيتر الكثيرين
الموظفين لجلب البركات من أعلى عليين،
كان بعضهم متعلمين وفصحاء
لكن الآلاف منهم متعصبون وجهلاء:
بيد أن كل الحشد السابق، هؤلاء الذين يمكنهم إخفاء
ما بهم من كسل وشهوة وجشع وخيلاء
والتي كانوا بها مشهورين
مثل شهرة البحارة بالبراندي، والقصاقيص لدى الخياطين
البعض ممن بدوا هزيلين، وفي ثياب بائسة
كانوا يبتهلون بطريقة غامضة من أجل قطعة خبز يابسة
بينما يقصدون من ذلك مؤونة وفيرة،
لكنهم حرفيا لم يتلقوا أكثر من ذلك ولو شعيرة،
وبينما كان هؤلاء الكادحون المقدسون من الجوع يتضورون
بعض الكسالى، الذين كانوا يخدمون
انغمسوا في طيب عيشهم،
وكل نعم الصحة والوفرة بادية على وجوههم.

الجنود، الذين أُجبروا على القتال
لو نجوا، كانوا يُكرَّمون على أي حال

رغم أن بعضهم، ممن تهربوا من المعركة الدامية
تمزقت أطرافهم، لكنهم فروا من الحرب الحامية،
بعض الجنرالات الشجعان حاربوا الأعداء
وآخرون تلقوا رشاوي ليتركوهم طلقاء
خاطر البعض دائما، حيثما اشتعل القتال وذاعا،
فقدوا هنا ساقا، وهناك ذراعا
حتى صاروا مقعدين تماما، وجرت مهمة تنحيتهم
عاشوا على نصف مرتباتهم؛
بينما آخرون لم يشتبكوا قط في الأمر
وقعدوا في البيت مقابل ضعف الأجر.

خدموا ملوكهم، لكن وزارتهم
بخسة خدعتهم؛
كثيرون، ممن هم لمصلحتهم مستعبَدون،
على التاج نفسه الذي أنقذوه يسطون:
كانت المعاشات ضئيلة، لكنهم عاشوا في مستوى عال
ومع ذلك تفاخروا بنزاهتهم في كل حال.
وكلما مدوا يمينهم في رخاوة
أسموا عادتهم اللزجة تلك: علاوة؛

وعندما فهم الناس رياءهم وهذه المراوغات
غيروا تسميتها إلى: مكافآت؛
غير راغبين في أن ينقص منهم شيء أو تصفر في جيوبهم الرياح
في أي شيء يتعلق بالمكسب أو الأرباح:
لأنه لم يكن هناك ذكر نحل، إلا
وكان يحصل على أكثر، لن أقول، مما ينبغي له،
لكن أكثر مما كان يجرؤ أن يدعهم يعرفون
أنهم يدفعون له؛ كما يفعل المقامرون
أي أنهم، لو كان اللعب عادلا، ما كانوا أبدا من الفائزين
بما فازوا به قبل الخاسرين.

لكن من يمكنه أن يكرر كل حيلهم بشكل بارع!
سقط المتاع نفسه، الذي في الشارع
على أنه تراب يخصب الأرض كانوا يبيعون
وكان كثيرا ما يصفه المشترون
أنه منتج راق به ربع رطل
من عدم الصلاحية لأي شيء، والحجارة والملاط في سطل
رغم أن آلة الدراس لا تملك سببا وجيها للتذمر، لا بُد

ممن باع للآخر الملح على أنه زُبد.

العدالة نفسها، المشهورة بالتعامل بالقسطاس
لم تفقد بالعمى الإحساس
فيدها اليسرى، تلك التي ينبغي أن تحمل الميزان
كثيرا ما أسقطته، بعد رشوتها بالأصفر الرنان؛
ورغم أنها كانت تبدو محايدة موضوعية
إلا أنه حيثما كانت العقوبة بدنية
ادعت اللجوء إلى أي مسار اعتيادي
في القتل، وفي كافة جرائم العنف الجسدي،
رغم أن البعض، ممن عُذبوا أولا بتهمة الغش والاحتيال
شُنقوا على العيدان التي ضُربوا بها دون سؤال،
غير أنه، اعتُقد، أن السيف الذي يواجه الضراء
لم يكن يخرج إلا لمواجهة البؤساء والفقراء؛
هؤلاء الذين كانوا مدفوعين بالضرورة الجرداء
ومربوطين بشجرة التعساء،
من أجل جرائم لم تكن تستحق هذا المصير،
لكن لتأمين الأغنياء وأصحاب القدر الكبير.

هكذا كان كل جزء مليئا بالرذيلة،
لكن المجموع كله كان فردوسا وجنة جميلة
كانوا موضع تقدير الأجانب؛
يتملقونهم في السلام، وفي الحروب يخشون منهم الجانب
وبوفرة ثرائهم وحياتهم
كانوا رمانة ميزان كل الخلايا الأخرى من حولهم.
هكذا كان من بركات تلك الدولة
أن تعاونت جرائمهم لتجعلهم عظاما وأصحاب صولة؛
وتعلمت الفضيلة من السياسة
ألف حيلة من الدهاء والكياسة،
وبفضل تأثيرها السعيد
تصاحبت مع الرذيلة: ومنذ ذلك الوقت البعيد
كان الأسوأ في كل هذا الحشد والزحام
يفعل شيئا من أجل الصالح العام.

كانت هذه براعة الدولة، التي صانت المجموع،
والتي كان يشكو منها كل جزء من الجموع،
هذا، كما في التناغم الموسيقيّ،
صنع تنافرات في التوافق الرئيسيّ؛

الأحزاب المتعارضة بشكل مباشر
تساعد بعضها البعض، كما لو كان نكاية في أحدها الآخر،
والزهد والنزاهة
يخدمان السُكْر والشراهة.

أصل الجشع الشرير، تلك الرذيلة
اللعينة المقيتة الوبيلة،
أنه كان عبدا للسرَف،
تلك الخطيئة النبيلة؛ مع الترَف.
وظَّف مليونا من الفقراء
ووظف مليونا أخرى ذلك البغيض: الكبرياء
وكان الحسد نفسه، والخيلاء
وزيريّ الصناعة والعناء؛
وحبيبتهما الحماقة، والتحول
في الملبس والأثاث والمأكل،
تلك الرذيلة الغريبة السخيفة بجدارة
جُعلت هي نفس العجلة التي تدير التجارة.
قوانينهم وأرديتهم على حد سواء
أشياء قابلة للتحول وضد البقاء؛

لأنه ما كان مستحسنا لوقت ما وذا قيمة
أصبح خلال نصف عام جريمة،
ومع ذلك فيما كانوا يغيرون قوانينهم
كانوا ما زالوا يجدون ويصححون عيوبهم،
كانوا يصلحون بالتحول الغلطات،
التي لم يكن يمكن أن تتنبأ بها أي احتياطات.

هكذا احتضنت الرذيلة البراعة
التي انضمت إلى الوقت، والصناعة
حملت وسائل الراحة في الحياة،
متعها الحقيقية والمباهج والرفاه،
إلى قمة عالية، حتى أن الفقراء
صاروا يعيشون أفضل مما كان يعيش الأغنياء،
ولم يعد بالإمكان إضافة أي من الأشياء.

كم هي تافهة سعادة البشر أهل الفناء!
فقط لو علموا حدود النعيم والهناء؛
وأن الكمال هنا في الأرض الفارهة
أكثر مما يمكن أن تمنحه الآلهة،

عاش البهائم المتوحشون في رضا ونعومة
مع الوزراء والحكومة.
لكنهم عند كل خيبة مسعى،
كمخلوقات ضائعة بلا رجعة،
كانوا يلعنون السياسيين والجيوش والأساطيل؛
بينما كل واحد يصرخ ويلعن الأباطيل،
ولا يتحمل بهمجية شيئا في الآخرين
رغم أنه واع بما فيه من عيب دفين.

أحدهم، كانت لديه ثروة تليق بأمير،
نالها بخداع السيد والملك والفقير،
جرؤ أن يصرخ بصوت عال: لا بد أن تغرق الأرض
لأجل كل ما فيها من احتيال وبغض
ومن تعتقد أنه يلوم، ذلك الواعظ النذل؟
صانع قفازات باع حَمَلا مقابل طفل.

الأمر الأخير لم يحدث على سبيل الخطأ التام
أو يتقاطع مع الشأن العام؛
لكن كل الأوغاد صرخوا بصفاقة مقدامة:

يا للآلهة! وهل لدينا غير الاستقامة!
ابتسم الإله ميركوري من هذه الوقاحة من الناس
ودعاها آخرون بنقص في الإحساس،
دائما يشجبون ما يحبون:
لكن جوبيتر تحرك بسخط مجنون،
وأخيرا أقسم في غضب، وقالها:
سيُخلص الخلية الجعجاعة من الخداع، وفعلها.
وفي اللحظة نفسها التي يفارق فيها الخداع نفوسهم
ويملأ الصدق قلوبهم،
تتبين لهم، مثل شجرة المعرفة في كُليتها،
تلك الجرائم، التي يخجلون من رؤيتها؟
والتي يعترفون بها الآن في صمتهم،
باحمرار وجوههم خجلا من قبحهم؛
كالأطفال الذين يخفون أخطاءهم
ومن لونهم يراودون أفكارهم،
متخيلين عند التطلع فيهم
أن الآخرين يرون ما جنت أياديهم.

لكن آه أيتها الآلهة! يا له من ذعر مرير!

كم كان هائلا ومفاجئا ذلك التغيير!
في نصف ساعة، وفي أرجاء البلد، في الجبل والسهل،
انخفض سعر اللحم مليما في الرطل.
سقط قناع الرياء والبهرج
من رجل الدولة العظيم إلى المهرج:
وبعضهم، بنظرات مستعارة جدّ معروفة
بدوا كغرباء في أجسادهم المألوفة.
صارت الحانة صامتة منذ ذلك اليوم من الزمان؛
لأن المدينين يدفعون ما عليهم طوعا الآن،
حتى ما نسيه الدائنون؛
الذين تركوهم، والذين لا يتركون.
هؤلاء، الذين كانوا في الجانب الخاطئ، وقفوا صامتين
وألقوا رداء الغيظ المرقَّع مستسلمين.
بناء على هذا، وبما أنه لا شيء يمكنه أن يزدهر بطريقة فائقة
أقل من المحامين في خلية صادقة،
فجميعهم، إلا هؤلاء الذين كان لديهم ما يكفيهم من خير،
انسحبوا يائسين وإلى جانبهم دوايات الحبر.

شنقت العدالة البعض، وأطلقت سراح آخرين،

وبعد أن تحقق الهدف منها إلى حين،
لم يعد من المطلوب وجودها
فتقاعدت مع كل بطانتها، وأبهتها.
في البداية سار بعض الحدادين، بالأقفال والشبكات المعدنية،
والأغلال والأبواب ذات الصفائح الحديدية،
بعدهم الحرس، والسجانون، والمعاونون كافة
أمام الإلهة، التي سارت على مسافة،
وزيرها الرئيسي والأمين،
الجلاَّد، المنجز الكبير للقوانين،
لم يحمل السيف الخيالي الفحل
لكن أدواته الخاصة: بلطة وحبل،
ثم رحلت العدالة نفسها ذات المظهر الكاذب، الشقراء
على سحابة يدفعها الهواء:
وحول مركبتها، ومن الخلف
كان الخفراء، وجُباة من كل صنف،
حُجَّاب محاكم، وكل هؤلاء الموظفين
الذين يعتصرون رزقهم من دموع الباكين.

رغم أن الطب بقي، فيما كان القوم مرضى متعبين

إلا أن أحدا لم يصف علاجا، باستثناء النحل الماهر المكين،
والذي تبعثر باتساع الخلية
حتى أن أحدا منه لم يعد بحاجة لركوب أو مطيَّة،
أزاحوا الخلافات العبثية، وجاهدوا لتحرير
المرضى من بؤسهم المرير،
تركوا العقاقير تتزايد في بلاد الاحتيال
واستخدموا منتجهم الخاص في كل الأحوال،
عالمين أن الآلهة لم ترسل أي داء
للأمم دون أن يكون له دواء.

هب رجال دينهم من كسلهم،
ولم يضعوا على كاهل النحل الرحَّال شيئا من عبئهم؛
لكنهم خدموا بأنفسهم، الخالية من الرذيلة،
الآلهة بالأضحيات والصلوات الطويلة،
وانسحب كل هؤلاء الذين كانوا غير أكفاء،
أو عرفوا أن خدماتهم قابلة للاستغناء،
أو لم يكن عملهم لعدد كبير من أتباعهم،
(لو كان الصادقون في حاجة لأي من خدماتهم)
بقي فقط القليل مع الكاهن الكبير

الذي كان يدين الباقون له بالطاعة والتوقير،
وهو نفسه، انشغل بالمسائل المقدسة،
موكلا لآخرين شؤون الدولة المسيسة،
لم يغلق بابه في وجه أي جائع من المعوزين
ولا اختلس شيئا من أجور الفقراء المساكين،
لكن في داره كان الجائع يشبع من بعد جوع
ويجد الذليل خبزا غير ممنوع
ولعابر السبيل المحتاج مائدة وفراش مرفوع.

بين وزراء الملك الأكابر
وكل الضباط الأصاغر
كان التغيير عظيما، لأنهم ببساطة
كانوا يعيشون الآن على مرتباتهم دون وساطة،
حتى أنه لو جاء يعسوب فقير عشر مرات
ليطلب مبلغا تافها، هو ما له من مستحقات
ويأتي موظف ما يحظى بأجر بالغ
ويجعله يدفع كرونة وإلا لن يحصل على ماله من مبالغ
سيُسمى هذا الآن احتيالا بصراحة
رغم أنه كان سابقا يُدعى علاوة مباحة.

كل الأماكن، التي كان يديرها ثلاثة في البداية
يراقب كل واحد منهم ما يقوم به الآخر من احتيال وغواية
وغالبا من واقع الإحساس بالزمالة
كانوا يساعدون أحدهم في سرقة الآخرين على عجالة،
هذه الأماكن مزودة الآن بشخص واحد؛
تضيع بواسطته آلاف أخرى دون عائد.

ليس هناك مقام رفيع الآن يمكن أن يكون راضي البال
بأن يعيش ويكون مدينا بما أُنفق من مال.
كسوات الخدم معلقة الآن في محلات الأشياء القديمة
ترحل مع المركبات مقابل أثمان بخسة عديمة
بِع خيولا جليلة بأطقم كاملة
وبيوتا ريفية لتسدد الديون الشاملة.

يجري تجنب التكلفة الزائدة بنفس قدر تجنب الاحتيال
لا قوات لديهم يحتفظون بها خارج البلاد والمجال
يسخرون من تقدير الأجانب
والمجد الزائل الذي تجلبه الحروب والنوائب
يقاتلون لكن من أجل وطنهم الأغر

عندما يكون الحق أو الحرية في خطر.

تأمل الآن وانظر إلى الخلية المجيدة فائقة المهارة
كيف تتفق الأمانة مع التجارة:
يمضي المظهر الخادع، ويتلاشى سريعا في الفضاء
وتبدو الخلية بوجه آخر مختلف السيماء
لأنه لم يرحل فقط سويا
هؤلاء الذين كانوا ينفقون مبالغ طائلة سنويا
لكن الحشود التي اعتمدت عليها وعاشت بها
كانت مجبرة يوميا على أن تفعل ذات الأمر بنفسها.
وعبثا كانوا يفرون إلى مهن أخرى بائسة؛
فكلها كانت كذلك مكدسة.

تتهاوى أسعار الأرض والبيوت الخالية
والقصور البديعة، التي كانت أسوارها العالية
مثل أسوار طيبة، قد ارتفعت لاهية
ستُهجر؛ بينما أرباب البيوت الزاهية
هؤلاء الذين كانوا مبتهجين وراسخين فيما مضى من زمن قريب
سيكونون أكثر من سعداء لأن يروها في ألسنة اللهيب

بدلا من رؤية نقوش الكتابة الوضيعة على الأبواب
تبتسم في وجه من حملت أسماءهم من النبلاء ذوي الأنساب.
انهارت تماما مهنة البناء
ولم يعد للحرفيين من عمل ولا بقاء؛
لم يعد هناك رسام مناظر مشهور بفنه ورسمه
ولا أحد من نحاتي الحجر ولا دباغي الجلود معروف باسمه.

هؤلاء الذين بقوا، صاروا مقتصدين، يجاهدون في عناء
ليس كي ينفقوا، بل كي يظلوا أحياء؛
وعندما دفعوا في الحانة ما عليهم من أموال
قرروا ألا يدخلوها مرة أخرى بأي حال من الأحوال،
ولم يعد بمقدور أحد من هاجري الحانات في كل الخلية
أن يرتدي الآن قماشا من الذهب ويعيش عيشة غنية؛
ولا عاد بمقدور أي مختال فخور أن يدفع مثل هذه المبالغ الوافرة
مقابل نبيذ بورجوندي وأورليانز وخمورهما الفاخرة؛
رحل خادم البلاط، ذاك الذي كان يتعشى في بيته
متناولا بازلاء الكريسماس مع آنسته،
منفقا في غضون ساعتين من الإسراف الشامل

ما يقيم أود قطيع من الخيول ليوم كامل.

كلوي[6] المتغطرسة، كي تحيا في عظمة وصولة
جعلت زوجها (ت) يسرق الدولة،
لكنها تبيع أثاثها وتحفها المنزلية
التي من أجلها نُهبت الهند الشرقية،
وتُقلص قائمة الطعام الباهظة الهائلة
وترتدي حُلتها المتينة سنة كاملة:
لقد ولَّى الزمن الرخيّ والقلاَّب
وبقيت على حالها، مثل الموضات، الثياب.
النساجون الذين كانوا يوشون الحرير الغالي بالفضة النفيسة
وكل المهن التابعة والرئيسة
اندثرت. لكن السلام والوفرة هما الحال السائد،
وكل شيء رخيص، لكنه فقير وذو شكل واحد.
الطبيعة الطيبة، متحررة من جبروت عمال الحدائق والأشخاص
تجود بكل الثمار على منوالها الخاص؛
لكن لا يمكن الحصول على النوادر الرقاق؛

6- اسم يوناني الأصلي شاع في قصة عاشقين هما دافنيس وكلوي للكاتب اليوناني لونجوس، كما ورد ذكره في العهد الجديد كاسم لسيدة من المسيحيات الأوائل: خلوي.

لأنه لا يمكن تحمل ما يلزمها من مشاق.

ومع انخفاض الرفاهية والفخار
قليلا قليلا يتركون البحار،
ليس التجار الآن؛ بل الشركات
تزيل مصانع كاملات.
كل الفنون والحرف تقبع مهمَلة مُضاعة
وهم راضون بهلاك الصناعة،
وهو ما يجعلهم معجبين ببضاعتهم المحلية،
لا يطلبون ولا يشتهون شيئا آخر بالكلية.

بقي عدد قليل جدا في الخلية الفسيحة الهادئة
لا يستطيعون الصمود جزءا من مائة
أمام ما يصدر عن الخصوم العديدين من إهانات وسفالة
والذين كانوا يقاومونهم مع ذلك ببسالة؛
حتى وجدوا ملاذا له سياج حصين
وهنا يموتون، أو يقفون مكانهم راسخين،
ليس هناك من أجير معروف في جيوشهم
لكنهم يحاربون بشجاعة دفاعا عن نفوسهم؛

شجاعتهم ونزاهتهم في النزال
كُللتا أخيرا بالنصر في القتال.
لكنهم دفعوا ثمنا كبيرا لينالوا انتصارهم
لأن آلافا مؤلفة من النحل فقدوا حياتهم.
وبعد أن أشقتهم الخطوب والكدح بكل وسيلة
عدُّوا الراحة في حد ذاتها نوعا من الرذيلة؛
وهو ما طور كثيرا ما لديهم من قناعة
حتى أنهم ليتجنبوا الإسراف واللكاعة،
طاروا إلى جوف شجرة هزيلة
ونعموا بالرضا والفضيلة.

العِبرة

إذًا دعوكم من الشكوى: فالحمقى فقط من يسعون بكل فرض ونافلة
كي يجعلوا من خلية عظيمة خلية فاضلة.
وكي تستمتعوا بأطايب الدنيا العظام
ابرزوا في الحروب، لكن احيوا في سلام
بدون الرذائل الكبرى، لن يكون هناك مجال
إلا ليوتوبيا فارغة مقرها الدماغ والخيال.

لا بد أن تعيش الخيلاء والرفاهية والمكائد

بينما نتحصل نحن على ما وراءها من فوائد؛

لا شك أن الجوع بلاء مخيف مرصود

لكن من يهضم دونه أو يشتد له عود؟

ألا ندين بنضج النبيذ والخمور الغالية

للكرمة الجافة الملتوية البالية؟

تلك التي تنهض فروعها مهملة

وفي نفس الوقت تخنق النباتات الأخرى، وتمتد إلى الأيكة الخاملة؛

لكنها تنعم علينا بثمارها النبيلة

بمجرد أن تُحزم وتُحصد من فوق الخميلة،

هكذا نجد الرذيلة نافعة مفيدة

عندما تشذبها وتقيدها العدالة السديدة،

بل إن الناس يكونون كبارا أصحاب صولة

كما هو لازم للدولة

عندما يكون الجوع دافعهم وراء كل أكلة.

ليس بمستطاع الفضيلة المجردة أن تجعل الأمم تحيا في عظمة وفخامة؛

لأن هـؤلاء الذيـن مـقدر لهم أن يعـيشوا عصـرا ذهبيا ذا عـزة

ومقامة،

لا بد أن يكونوا أحرارا في الرذائل،

كما هم أحرار في الفضائل.

النهاية

في ثوب إيسوب

أو مجموعة من الأمثولات

بقلم

برنارد ماندفيل

مقدمة للقارئ

المقدمات واللوحات المطبوعة عادةً ما تُستخدم لنفس الغرض تقريبا: للبدء والتفسير. ونظرا لكون الأخيرة باهظة التكاليف للغاية، فقد عفا عليها الزمن إلى حد كبير، في عصر توجد به وفرة من الأشياء الطيبة التي يمكن شراؤها غير الكتب. لكن الأولى بسببٍ من عادة شريرة، صارت ضرورية للغاية، حتى أن أي كتاب سيبدو معيبا دون مقدمة، كما لو كان ينقصه صفحة الغلاف نفسها. ورغم صعوبة الأمر إلا أنني مضطر للحديث إلى قارئي، سواء كان لديّ أي شيء أقوله له أو لم يكن لديّ. بل إن الأسوأ أن كل شخص يعتقد أن الرجل ينبغي أن يكون أكثر جودا وسخاء بمهارته وعلمه هنا عن أي مكان آخر: فهنا سيجعلوه يبدي براعته، ولذلك يزخرف أغلب المؤلفين مقدماتهم كما لو كانت أقواس نصر، حيث لا يمكن رؤية شيء فارغ فيها، ومن أعلاها إلى أدناها يجب أن تزدحم بالشعارات والمقولات الجميلة، وتتخللها بحكمة وروية شذرات من اللاتينية، رغم أنهم قد يستعيرونها من قس الأبرشية. أقول إن هذه هي المآدب التي يحبون أن يتخمونا فيها بالفطنة واللغة الجميلة؛ رغم أنهم يجوعوننا بعدها إلى الأبد، وهو ما يجعل بعضها يبدو أشبه بشغل تطريز على باب بهو فارغ. لكني عازم على أن يناسب رواقي بقية البيت، وبما أن كل شيء بداخله واضح وبسيط، فلن يكون هناك شيء منحوتا أو

مُذهَّبا في الخارج. إلى جانب ذلك، فأنا يا قارئي الطيب أكره الرسميات، وكل شأني معك أن أجعلك تعرف أني قد كتبت بعض الأمثولات شعرا، سائرا على الدرب المألوف لرجل عظيم في فرنسا، مسيو دو لافونتين. لقد ألزمت نفسي بمقادير صارمة، وسعيت كي أجعلها حرة وطبيعية، وإذا ثبت أنها العكس، فأنا آسف على ذلك. أمثولتان منهم من ابتكاري، لكني أبعد ما أكون عن الشعور بحب أكبر نحوهما، حتى أني أعتقد أنهما الأسوأ في المجموعة. وبالتالي على سبيل التصرف بطريقة لطيفة مع ذاتي سأكتم اسميهما. اكتشفهما، على الرحب والسعة. كان يمكنني أن أتمنى لو زودتك بشيء يستحق وقتك الثمين على نحو أكبر؛ لكن بما أنك لن تجد شيئا تعليميا للغاية، فلن تجد الكثير مما يحير عقلك. علاوة على ذلك، أحب أن يقرأها كل شخص في نفس الوقت الذي كتبتها فيه؛ وذلك عندما لم يكن لديّ أي شيء آخر لأفعله. لو أحب أي شخص هذه التفاهات، ربما أستمر، وإذا لم يحدث، فلن يزعجكم المزيد منها. وهكذا وداعا أيها القارئ.

التنّينان، أمثولة

منذ زمن ليس بالبعيد جاء سفير الترك العظام إلى الإمبراطور، وامتدح قوة سيده، التي تتجاوز قوة الألمان. أحد أفراد الحاشية، عاشق لبلده، قال متفاخرا إن جلالة إمبراطوره لديه أمراء كثيرون تحت إمرته، أقوياء جدا لدرجة أن كل واحد منهم بإمكانه أن ينهض بجيش وحده، وأكثر مما يمكن لشخص يلبس تاجا. فقال الآخر: أعلم جيدا أن دوقاتكم وقواكم الانتخابية، مع أشياء أخرى، هي ما تدفع قُدُما مجد الإمبراطورية. لكني سأحكي لك قصة: حلمتُ أني رأيت وحشا مخيفا، له مائة رأس على الأقل. في البداية جفلتُ لمرآه ووجب قلبي، لكن سرعان ما تعافيت من رعبي. جازفت بالتقدم، وعندما اقتربت منه، وجدت أنه لم يكن لديّ عذر في الخوف منه: *لأن كل رأس كانت تفعل ما يحلو لها؛ بعضها يعمل بكل ما أمكنه من قوة، لكن أغلبها راقدة متكومة. وبدت كما لو كانت نائمة، بينما الأخرى، على أمل الحصول على فريسة أفضل، كانت تشد نفسها في طريق آخر تماما. أدرت رأسي وتلصصت. على الجانب الآخر كان وحش جبار: زينت رقبته المفتولة العضلات رأسٌ واحدة، لكن مائة* ذيل حمت ظهره. وبينما كانت المائة رأس تزحف سائرة على الأرض، كانت الأذيال تتبع الرأس الواحد منصاعة لأمره، قاطعة الرؤوس في كل مكان. استيقظت، وفكرت أن الوحشين كانا إمبراطوريتين، لكن الأذيال لنا، وكل الرؤوس المجيدة لكم.

الذئب والكلب

ذئب مسكين وهزيل على نحو جدير بالشفقة، عظامه نفسها برزت من جلده. (وهي علامة على أن الكلاب كانت يقظة). قابل كلبا متينا من فصيلة الدرواس، كلب أملس الشعر وسمين. السيد الذئب، المنتقم من خصومه، كان ليقتله -كواحد من هؤلاء الذين أعاقوه عن سرقة الماشية- لكنه خاف من الالتحام في معركة مع خصم بدا كما لو كان بمقدوره أن يصارع فحل جاموس، ويقيم عليه حفلا طيبا. ولذلك أولى كامل انتباهه بطريقة ذليلة للكلب، وتحدث بلين شديد، وباح بحمولة عربة من الشكاوى عن كونه على هذا الحال، رغم خاصرته القوية ووجهه الظريف. أجابه الكلب الدرواس: سيدي الذئب، يمكنك أن تكون سمينا كأي ظبية، فقط لو اتبعتَ نصيحتي. لأني بإخلاص أعتقد أنك لست حكيما. أن تتجول رائحا غاديا في غابة، حيث لا يوجد شيء طيب تناله، لا لحم صدقة، أو لقمة حتى يطيب أكلها. لكن ما تناله القوة المحض، تدفع ثمنه في النهاية بالتبعية. ولذلك أنتم وزوجاتكم العجفاوات وأطفالكم الضامرون لا تعيشون إلا حياة بائسة، على خوف دائما من أن يمسكوا بكم. إلى أن تموتوا جوعا كالعادة أو يطلقون عليكم الرصاص. قال الذئب: *دلني على سبيل للرزق، وعندئذ فليأخذ الشيطان الغابة؛ فأنا دائما في حاجة إلى طعام أفضل، وسأكون سعيدا لو أكلت في هدوء. لكن من فضلك، لو سمحت، ما العمل؟* - لا شيء، إلا ما هو سهل للغاية؛ أن تنبح في

وجه الأشخاص الذين يبدون فقراء، وتطرد المتسكعين اللصوص بعيدا عن الباب، وبعد ذلك، وهو الموضوع الأهم، أن تهز ذيلك وتلاطف وتداهن أفراد العائلة. في مقابل هذا سيعطونك مائة نوع من اللطائف: مثل عظام الدجاج، وخواصر الضأن المسلوقة، تلك التي يطيب دائما غرز الأسنان فيها، ولعق الطبق المدهن. وكل الأطايب التي يمكن أن يتمناها القلب. وعلاوة على ذلك، سيعانقك السيد، ويبصق في فمك، و... – باركتك السماء يا سيدي الطيب، دعنا نذهب فورا، هكذا أجاب الذئب، وبكى من الفرح. انطلقا، ورغم أنهما سارا بسرعة، إلا أن الذئب لمح هنا وهناك موضعا في عنق الكلب الدرواس، حيث بدا ناصحه الكلب قد فقد بعض الشعر، فقال: من فضلك أخي الكلب، ما هذا؟ لا شيء. لا، قل لي، ما هذا؟ تبدو أشبه بقرحة. ربما هي من طوقي. أفهم من هذا إذًا أنهم يربطونك في البيت. نعم. لا أميل إلى هذا، أم أنه يرتخي عندما ترغب في ذلك. في الحقيقة ليس دائما، لكن ما هذا؟ ما هذا؟ قال، الفأر يلعب في صدري؛ إن حريتي كنز كبير، ولن أقايضها بأي متعة دنيوية. وعند هذا فر الذئب، وما زال يفر إلى ما لا أعلم.

الضفدع

ثبَّت ضـفدع عيـنيه الطموحتـين على ثـور، معـجبا بحـجمه،

وانطلاقا من جرمه الصغير كبيضة، سعى لأن يصبح كبيرا مثله. نفخ نفسه، ونفخ، ونفخ، ومع كل خطوة كان يصرخ: حسنا يا أخي، هل تضخمت بما يكفي؟ ألم أصبح كبيرا مثله؟ يالها من تخمة! من فضلك انظر مرة أخرى. لا شيء على الإطلاق! والآن. لم تقترب من حجمه بعد. ومرة أخرى ينفخ نفسه، وينفخ بسرعة كبيرة، إلى أن انفجر في النهاية، بعد أن شد جسده أكثر. هكذا يمتلئ بالتكبر كل عصر! المواطن لا بد أن يكون لديه خادم، وللأمير التافه سفراء، وللتجار مربو أطفال. شخص لا يساوي قملة، لكنه يحتفظ بمركبته وبيته الريفي، تاجر منفوخ بالعجرفة، يبدو أكبر مما هو عليه بعشر مرات؛ يشتري كل شيء، ويستغل صديقه، كأن رصيده لا ينفد. وأخيرا يتمدد بقوة عتية، حتى ينفجر، كالضفدع، بالتبعية. وتكتشف من خواء جلده، أنه لم يكن مليئا إلا بالهواء.

اليقطينة وجوزة البلوط

قروي ساذج مغـرور، ألقى ملاحظـاته النـيرة حول ثمرة يقطين. قال: هذه الثـمرة كبـيرة جدا. ساقها لا تزيد في السُمك عن غصين، وتكاد تـكون بلا جذور، ولا أوراق كبيـرة. تُرى كيـف تأتَّى لأمنا الطبـيعة أن تصـنع مثل هذا الخطأ الـفادح؟ لو كنـت مكانها، لوضعتها على شجرة البلوط العالية هناك، وكنت لأنـعم عليـها

بشرف يزيد على جوز البلوط؛ فهي جوزات أشبه بالنزوة الطارئة تكفيها شجيرة صغيرة واطئة. لمَ ينبغي لشجرة عالية وجميلة هكذا، أن تحمل ثمارا صغيرة لا تليق إلا بخنزيرة؟ لكن مائة شيء صُنعت هباء، مما يُظهر أن العالم تشكل باستعجال. لو بُعثتُ في تلك الأيام، لقُضي الأمر على غير هذا الحال: كنت سأجعل كل شيء متناسقا، والأشجار الكبيرة كانت ستحمل ثمرا كبيرا. هكذا استمر في تأملاته، وفي نظره كان المغفل حكيما جدا. بعد قليل، اقترب من شجرة بلوط، قمتها عالية جدا. أعجبه المكان ومدد جسده المتعب في الظل. لكن ما إن انقلب هذا الحيوان العيَّاب على ظهره، حتى سقطت جوزة بلوط، وضربت أنفه ضربة ساحقة. يا إلهي الرحيم لو كانت هذه هي اليقطينة الآن! الفكرة ذاتها أصابته بالخرس؛ فمدح خالقه، وعاد إلى البيت.

العبرة

نسيج العالم الهائل ابتدعته براعة خالقه جيدا. لا يوجد به شيء إلا ما هو خير لهذا الذي يفهم ويعي، وما يناقض الحس الإنساني لا يُظهر إلا كبرياءنا وجهلنا.

اليدان والقدمان والبطن

التقت اليدان والقدمان في مجلس، وكانت جميعها على

درجة شديدة من الانزعاج، وأقسمت أنه أمر أشق من أن يوصف بالصعب؛ أن تعمل دائما دون مكافأة. قالت القدمان: *حقا إنها لأضحوكة، أن نضطر لحمل* كل البقية، ونسير طوال الوقت في السراء والضراء، بأحذية تسمح بدخول الماء. أظافرنا صلبة كقرون الثيران، وأصابعنا مبتلاة بمسامير القدم المزعجة؛ طلعت لنا أربعة ثآليل منذ بضعة ليال، ومع ذلك لم ننل مليما. ردت اليدان: يا إخوتي هذا صحيح، نحن نعلم ما تعانونه من صعاب وتباريح، لكننا مع ذلك عبيد أكثر منكم، لأننا طوال اليوم نحك وننبش، ونشقى حتى تتألم أصابعنا، رغم أننا تعاملنا مع كل شيء، إلا أن هذا يتم دون اعتبار لما نشعر به من آلام أو تعب. نحن مجبرون على الخدمة عند كل وجبة، وغالبا بينما تستكينون في راحة، نكدح نحن في الشحم والدهن الذي يغطي المفاصل، أما بالنسبة لمساميركم وأظافركم في الحقيقة، فنحن من نتحمل عناء قصها جميعا. لا تأخذوا هذا يا إخوتي بمعنى أنه قد يخلق اختلافا بيننا، لقد أشرنا إلى ذلك فقط، لنبين أننا نتعرض لسوء الاستخدام مثلكم تماما. مظالمنا عامة، وسببها ذلك الذي يبتلع كل شيء؛ ذلك البطن الجاحد هو مصدر الأذى لنا، ذلك الذي نبقي عليه بعملنا، الوغد الشرير الذي نطعمه دوما. الكلب الأكثر كسلا، الذي يعيش ليقتات. من أجله نموت جوعا، لأنه ماذا يصير في اعتقادكم من أمر كل اللحم والشراب؟ إنه هو من يجعلنا نبدو على كل هذا النحول كي يمط جلده الدائم. رغم أننا نقوم بكل

شؤونه، ماذا أعطانا هو أصلا؟ ولذلك دعوا مولانا البطن يقول ما يشاء، فلن نعمل من أجل أي أحد. ولن نهرشه حتى إذا شعر بالحكة، وناداانا مائة مرة بأبناء الزنا. وإذا فعلتم المثل سترون، سرعان ما يكون هزيلا مثلنا. ما رأيكم يا إخوتي، أتوافقون؟ قالت القدمان: بلى، واللعنة على من يجرؤ على التحرك أولا. وهكذا تمرد العصاة، الذين أقسموا أنهم سيحفظون الآن عهدهم المقدس. وقرروا أن يعيشوا كسادة. نادى البطن مرة بعد مرة، فردوا عليه أنهم لن يكدحوا بعد الآن، بل سيستريحون كما فعل من قبل. لكن سرعان ما ندم المتمردون، لأن البطن عندما نفد مخزونه، لم يستطع أن يرسل التغذية اللازمة، تلك المطلوبة لكل عضو؛ سيطر الضعف على القلب الواهن، حتى عانت كل الأعضاء، وذبلت في محنة حزينة. وفهموا، بعد أن فات الأوان؛ كيف أن ذلك الذي اتهموه بالجشع والكسل والجحود، كان يعمل للصالح العام، بطرق لم يفهموها قط.

العبرة

البطن هو الحكومة، منها تُرسَل التغذية، أو القوانين المفيدة من أجل السلام المشترك، من أجل الوفرة، التحرر، والراحة، إلى كل الجسد السياسي، وإذا فشل في ذلك تمرض الأمة. والأعضاء هم العامة الساخطون؛ الجاهلون بمدى ضرورة الدولة، وأن الأمراء لا بد أن يكونوا عظاما، لأنه لو قلت فخامتهم وقوتهم، لن

يستطيعوا الحفاظ على سعادتنا. يعتقد الغوغاء أن كل بلاط ملكي ما هو إلا مقاعد للكسل والرفاهية، وأنهم ليسوا إلا عبيدا مجبرين على تحمل الضرائب، ومشاق الحرب، لكن في هذه الأمثولة ربما يرون ثمار التمرد الكئيبة، بينما الرعايا الذين يساعدون التاج، إنما يعملون للحفاظ على أنفسهم.

القروي والفارس

كان لقروي شريف قطعة أرض جميلة خلف بيته، أرض حديقة، بها كل ما قد يبهج الذوق والعين. الورد والسوسن، الذي كان ما زال يُرعى ليرطب البشرة، والخشخاش المشهور بمنحه الراحة، مع الخس الروماني والهندباء والبازلاء والفاصوليا، التي يشير المتخصصون في الطبيعة إلى أنها مفسدة للحم الخنزير. كانت أحواض الزرع مسمدة بالروث، وممرات المشي مكنوسة جيدا. وكل شيء كان يحظى برعاية طيبة. ثمة أرنبة فقط من وقت لآخر وبالرغم من السيد والرجال المنغمسين في العمل بالمعازق والمجارف طوال نصف يوم، تأتي لتملأ معدتها وتنفلت مبتعدة. وعبثا كانوا يضربون الأرض ويفتشونها، فلم يستطيعوا قط العثور على اللصة الماكرة. وذات مرة وثب السيد في حالة من الغضب، وأقسم بكل ما هو طيب أنه سينتقم. جرى إلى فارس من جيرانه في الريف، وشكا هناك كيف أن كل عمله وكدحه تفسده

أرنبة واحدة لعينة، والتي رغم أنه بحث عنها في كل مكان لم يتمكن هو أو رجاله من الإمساك بها. وهي بالتأكيد ساحرة شريرة. ابتسم جلالته ووعد أن يخلصه من الأرنبة الوقحة. وعند بزوغ الفجر ينفخ جاك في بوقه، وتركض كلاب الصيد بين الذرة، تطلق الكلاب الشرسة عواءً، وتصنع سيمفونية ملعونة. تحركوا الآن أيها الأوغاد: فالفارس قادم مع روبن ولايتفوت وديك وتوم. البيت مليء بالكلاب والأولاد، وفي كل مكان ضجة مزعجة. حسنا يا صاحب الأرض، هيا، ماذا سنفعل؟ ألا يجب أن نأكل لقمة قبل أن ننطلق؟ ماذا لديك؟ والآن يُحضرون كل شيء. تُنبش الأطعمة، وتُمزق قطعا. يقسم أحدهم الرغيف نصفين، ورجل آخر يتناول البيرة وكأنه في بيته، ويدلق نصفها في أرجاء الغرفة. ماذا لدى السائس هنالك عند الباب؟ لماذا؟ صدقني هناك نصف دستة أخرى: وهم سادة نبلاء يعيشون في البلاط، أتوا إلى الريف من أجل بعض التريض. أحد معارف الفارس القدماء، الذي كان يخطف الطعام من فوق المائدة، يأمرهم بالجلوس. لا يطرحون أي أسئلة لكنهم يجلسون، بل ينطرحون عليها أيضا كما لو أنها ملكهم. ينهي أحدهم السلمون المطبوخ في القدر، ثم يطلق سبابا لأنه لم يكن معه ليمون. يا إلهي الرحيم! يا لهم من أصحاب مزاج حاد، هؤلاء الأوغاد! وهو ما يجعل سيدي يتصبب عرقا. تأتي ابنته بمؤونة جديدة من لحم البقر بالكرنب، وفطائر التفاح. يميل جلالته حتى يكاد يسقط عليها، وترتجف المخلوقة الحيية خوفا. متى نتزوج

يا آنسة آن؟ ترى من يكون الرجل سعيد الحظ؟ يتناول يدها، ويلمس ذقنها، ويحدق في وجهها، ويثني على بشرتها، يزيح ثوبها الكتاني قليلا، ويكشف عنقها: ثمة حليب ودماء، فليرحمك الله يا جاك. تحمر خجلا، ويقسم أنها فتاة جميلة، ثم يأخذ قبلة، لا توافق، ولا تجرؤ على الرفض، تدافع عن نفسها باحترام. والآن سيتركها الفارس. لكن فاجرا آخر سيصيح: اللعنة! لا! سآخذ قبلة مثلي مثلك. يضمها بشدة، ويدعوها بالعزيزة، ويهمس بكلمات فاحشة في أذنها. يا عفريتتي الفاتنة، لن أؤذيكي. لا ترد عليه، بل تُطرق مجاملةً. هو وقح، وهي تخجل من الصراخ. يرى أبوها ذلك، ولا يجرؤ على الكلام، لكنه يتحمل بصبر كل ذلك، واقفا كتمثال في الصالة. أما عن الحديقة والأرنبة، فالكلاب تقتحمها الآن، تنبش وتمزق. يتبعها السائسون، يقفزون السور، ويسقط السياج الذي أقيم على عجل ومعه الأوتاد. يحفر الصياد الأرض ويجري ويزيح ما أمامه، كل شيء يحل عليه الخراب: الأسوار والشجيرات. والآن يجهش سيدي صاحب الأرض بالبكاء، لقد دمرتموني، لكن كل هذا هباء. رؤوس الكرنب مبعثرة، والزهور بجذورها كلها مجتثة. أحواض الزرع تساوت بالأرض. أخيرا يعثرون على الأرنبة المرتعدة المسكينة مختبئة أسفل قرنبيطة. يأخذون الفريسة، وينفلتون بعيدا، ويتركون رجلنا القروي ليفكر في كل خسارته من اللحم والشراب: ياله من دمار حل في كل موضع! انتُهكت ابنته أمام عينيه. كان أذى الأرنبة صغيرا

مقارنةً بالصيادين النهمين. يهز يديه ويلويهما، وبالدموع يندم على تهوره الأحمق، ويقسم أنه لن يطلب العون أبدا مرة أخرى متعجلا؛ لأن كلاب الصيد والخيول أتلفت في نصف ساعة أكثر مما يمكن لكافة أرانب البلاد أن تتلفه في سبعة أعوام.

العبرة

عندما لا يتمكن الأمراء التافهون من الاتفاق، ويسعون إلى التفوق، غالبا ما يسلكون درب سيدي صاحب الأرض؛ فيستدعون قوة أجنبية من أجل العون، وعندما يصبح رعاياهم عبيدا، ويحل الخراب على بلادهم كلها، كما يثبت قدرهم في العادة، يندمون معه وقت لا ينفع الندم.

الطاعون وسط الوحوش

ذات مرة أزعج طاعون كل الحيوانات المستأنسة والبرية. جربوا كل ما في العالم من دواء، لكن أيا منه لم يهزم ذلك الداء. ورغم أنه لم يمت الجميع في هذا البلاء، إلا أن أحدا لم يخلُ منه. في هذه الغمة أرسل الأسد إعلانه الملكي إلى كل رعاياه المحبين يحييهم ويستدعيهم إلى اجتماع عام. وعندما مثلوا حول عرينه، قال: أسيادي وسادتي، أعتقد أنكم رأيتم جميعا وأدركتم مغزى هذا الوباء المهلك. لا شك أنه لم يحل علينا من قبل قط مثل هذا

العقاب الاستثنائي على جرائم شائعة. لذلك فإن أصله لم ينبع من الشعور العادي لدى الأمة، بل من شر شائن ما. لذا دعونا نفتش في ضمائرنا، وليعترف كل واحد بأخطائه. سنحاكم الكبير والصغير، وذلك الذي يتبين أنه الحيوان الأشر سنقدمه أضحية وقربانا؛ لنهدئ سخط السماء الغاضبة. ولنقدم لخطايانا كفارة بهذه الطريقة العتيقة من تقديم القرابين. ولأنه لا أحد يخلو من الخطيئة، فسأبدأ بنفسي أولا. لقد قتلت ثورا، والأسوأ من هذا، قمت بقتل حصان. وذات يوم، بما أني آثم، فقد أكلت سبعة خنازير على العشاء. سطوت على غابات، ومستنقعات، ومثل أي نهم تغذيت على قطعان كاملة من الحملان والضأن. لكن أحيانا، لأنه لا فائدة من الكذب، كان الراعي يذهب صحبة معهم. كان هذا حديثه. وعندئذ هتف مستشاره الثعلب: وماذا يهم أي ثور أو حصان؟ بالطبع لهذه الأشياء التافهة الشرف عندما تغدو أدوات رياضة للملوك. لكن يا سيدي إن ضميرك ألطف مما يجب. الصيد رياضة الملوك. أما بالنسبة للخراف، تلك الماشية الحمقاء، غير الصالحة للحمل أو للمعارك، وبما أن لحمها مقبول، فهي غير صالحة لشيء إلا للأكل. أما عن الراعي، عدوك اللدود، فلم يستحق مصيرا أفضل. هكذا جرى إبراء ذمة ذلك الذي كان يحمل إثم عشرين ضحية. كذا الدب والنمر والوحوش التي تحارب، وكل ما كان باستطاعته أن يخدش أو يعض خرج بريئا؛ لأن كل انتهاكاتهم الجسيمة وجد لها الآخرون الأشرار بنفس القدر

أعذارا. حتى القط ذو الطبيعة الشريرة الذي يقتل مخلوقا مثله على سبيل التسلية خرج سالما دون أذى. لكن حمارا بليد الذاكرة اعترف أنه أثناء ذهابه إلى سوق ستوربريدج، عندما كاد ظهره ينكسر من حمولة الخشب، وتصادف وهو نصف ميت من الجوع وشاعر بالوهن أن مر قرب ساحة كنيسة بها عشب ممتاز. كانوا قد نسوا أن يغلقوا البوابة. غامر بالدخول، وانحنى وأكل. أمسك عند ذلك، صرخ القاضي الذئب، لا مزيد، من أجل جرائم كهذه تحق علينا مثل هذه الأوقات المهلكة. وفقا للعديد من قوانين البرلمان يعد هذا تدنيسا للمقدسات، ووافقوا جميعا. وهكذا جرت التضحية بالحمار الأحمق العفيف لأكله العشب.

العبرة

تبين لكم الأمثولة مصير الناس المساكين، بينما لا يمكن أبدا للكبار أن تبلغهم القوانين.

الجندب والنملة

جنـدب سعيد، كان يغني ويصفر طوال الصيف، ويتـغذى على الذباب الصغير، ولم يكن لـديه أي داع لأفكار حزيـنة عن الموسم الألطف؛ لأنه عندما كانت رياح الجـنوب تهب سـاخنة، كان الـطعام يطير إلى داخل فمه. لكن في الشـتاء عندمـا يحل البـرد، كان يجـد

نفسه منكوب الحال بنفس القدر، مثل أي حشرة تحت السماء. والآن بما أن المطرب الجائع وصل إلى هذا الحال، الذي لا يمكن لأحد أن يعرفه إلا موسيقي أو شاعر جوال، فقد قام بزيارة إلى ذكر نمل، آملا أن يشبع عنده حاجته. قال: لم آت متسولا يا سيدي، فقط حدد يوما في شهر يوليو القادم، وسأوفي ما عليّ من دين، سيكون رأس مالك مع الفوائد جاهزين بمجرد أن تنادي. فقال ذكر النمل المقتصد: حقا يا جاري، أنا أحصل على رزقي بالكد والعمل، لكنك، يا من جئت في العاصفة إلى هنا، ماذا فعلت عندما كان الجو صحوا؟ فأجابه الجندب: لقد غنيت. فقال ذكر النمل: غنيت! بعد إذنك يا سيدي، إذا كنت قد غنيت في أفضل أوقات السنة، فلترقص بقيتها.

بائعة الحليب

سيدة ذات جسد متين، ذاهبة إلى البلدة لتبيع حليبها مرتدية ثوبا صوفيا ناحلا، وعباءتها مرفوعة لتكون جاهزة لأي سباق، وهي تسير قدما بخطوة نشطة. وفي ذهنها تحصي بالفعل الثمن الذي يصل إليه حليبها. تتخيل أن كله قد بيع، وترسم للمال مائة طريقة للإنفاق. أخيرا يقر قرارها، وتتضح الأمور في ذهنها. سيجلب البيض المكسب الأكيد: ستشتري مائة بيضة، والتي بحسابها ستكون بعد أربعة أسابيع من الآن مائة وعشرين دجاجة.

ستوليها عناية فائقة في تربيتها، فلا ثعلب ولا قط سيتمكن أبدا من الاقتراب منها. أفضل الدجاجات سيتم الاحتفاظ بها من أجل البيض، والأخريات سيتم بيعها لشراء بعض الخنازير، ستقدم لهم بعض النخالة مع رؤوس اللفت وأوراق الكرنب، ورغم أنهم لن يحظوا بأي قدر مذكور من البسلة، لكن بعد فترة قصيرة سيباعون من أجل لحمهم. ياه! كم أسعد المال بالها والذي ستشتري به بقرة وعِجلا. ستتركهما يرعيان على المشاع، وهناك تراهما يتقافزان، وعند هذا قفزت هي أيضا من الفرح، وسقط سطل الحليب، والآن تصبحين على خير أيتها الدجاجات، والعجل والبقرة، والبيض، ولحم الخنازير؛ ويا كل رعايتها الفائقة، التي تضاءلت في الهواء. تنظر بأسى إلى الأرض، والحليب الذي غرق فيه حظها، ثم تعود إلى البيت حاملة الخبر الحزين، وتجتهد كي تجد أفضل عذر. يقابلها زوجها بلعنة، ولا بأس بذلك فقد كانت تخشى الأسوأ. الراهب، والرجل الشهير المختال، وسيدتنا القروية، وأحكم القضاة، وسيدي العمدة، كلهم يبنون قلاعا في الهواء. وكلهم يجد متعة سرية في أحلام اليقظة: سعداء بخيالاتنا نحوز الأصدقاء والشرف والنساء والقصور. عندما أكون وحيدا أجرؤ على تحدي الجنس البشري في الذكاء والشجاعة. أهزم الفرنسيين في نصف ساعة، وأنال كل مدنهم في قبضتي. أحيانا أسعد بكوني ملكا. يعني هذا النجاح في كل شيء. وما إن يغدو العالم ملكي، يأتي أحدهم ليطلب بإلحاح كرونة اقترضتها منه،

وحاليا أنا الفقير، ومن قبل كنت المغفل الكسول.

الديك والقط والفأر الصغير

فأر بلا خبرة كاد يسقط في الفخ لانعدام فهمه. اسمعوا كيف حكى الأحمق الصغير مغامرته الغريبة لأمه العجوز: عبرتُ حدود *دولتنا*، وجريت *بسرعة كأي جرذ*، *عندما لمحت فجأة مخلوقين لهما هيئة* وملامح *مختلفة جدا*. بدا أحدهما مبتسما ولطيفا ومهذبا، أما الآخر فكان الشيطان بعينه، بدا شرسا للغاية، وأثار شغبا كبيرا. كان ينبش الأرض، ويدور حول نفسه، ولا يقف ساكنا أبدا، على رأسه كان يضع قطعة من اللحم حمراء اللون، وباقة من ذيول خضراء وسوداء وقفت تحدق أعلى من ظهره. وهكذا وصف الفأر الساذج ديكا رآه خلف المنزل، كأنه وحش مفترس مجلوب من أمريكا. قال: يخطو بغطرسة، ويضرب بذراعيه العريضتين جانبيه، ثم يرفع صوته الحاد والمخيف، ويطلق ضجة فظيعة جدا. هذا رغم أنه يمكنني أن أؤكد لك يا أماه أن لديّ من الشجاعة مثل ما يملك أي فأر آخر، لكني ارتعدت، واضطررت إلى الفرار خوفا. لعنت ذلك المستأسد في عقلي، لأنها كانت غلطة ذلك الشرير المتبختر؛ لولاه لتعرفت فورا على ذلك الحيوان الآخر. كان يجلس هادئا جدا بكل هذه المهابة، وفي وجهه طيبة بالغة، وهو مكسو بالفرو مثلنا، وعلى ظهره خطوط واضحة جدا لونها

رمادي وأسود. لديه ذيل طويل، وعينان لامعتان، ولكنه متسربل بكل تواضع. أعتقد أنه قريب لحلفائنا أبناء الأمة الجرذانية. أذناه وشواربه نفس آذاننا وشواربنا، كنت سأسأله عن اسمه، عندما جعلني الآخر بصوته الأجش والبغيض أترك أرضي. أجابته أمه: أحسنت صنعا بهروبك يا بني، لقد كنت قريبا جدا من الهلاك. تلك القطعة الشكلية من التواضع، تلك المرآة من الرياء، كانت قطا لعينا له سمعة شريرة، قلبي يوجعني لمجرد ذكر اسمه. إنه الخصم الأبدي للفأر، وهو الموت والدمار لبيتنا. بينما ذلك الحيوان الآخر لم يؤذنا قط، ولن يؤذينا أبدا، لكن عندما يموت ويرحل، سيخدمنا ذات يوم ونتعشى به. لذا أرجوك يا بني، أيا كان ما تفعله، خذ حذرا خاصا منه، ذلك الذي تراه مخلوقا وديعا، ولا تحكم على الناس بمنظرها.

الديك واللؤلؤة

ديك، لا يحظى بتغذية جيدة، وهو بطبيعته نبَّاش في أكوام الروث. وبينما كان ينبش في التراب، وجد لؤلؤة تساوي خمسة وعشرين جنيها. فذهب بها يعدو إلى جواهري. ومثل كلب أحمق قال: سيدي، في الزبالة هناك يوجد شيء غير صالح للأكل. لو تعتقد أنه سيخدم عملك، سأقايضه مقابل حبة ذرة. ولعمري أحيانا ما يأتي الناس مثل هذا الفعل السيء؛ فقد عرفت وريثا

أحمق، كان لديه مخطوط نفيس عن الذكاء والعمل، قال لجاره بائع الكتب: لديّ بعض أوراق كتبها عمي، يقولون إنه كان رجلا ذا فطنة وذكاء، لكن الكتب أشياء لا تهمني كثيرا، كرونة واحدة ستكون أكثر نفعا لأمري.

بلاط الأسد

حدث هذا منذ بضعة أعوام. كان لدى الأسد عقل يتسع لمعرفة أي أمم الوحوش هنا وهناك تنتمي لتاجه الملكي. ولذلك أرسل بأمره الملكي خطابات إلى كل مكان، بأنه سيقيم بلاطا مفتوحا، وسيسمح فيه بكل رياضة ملكية، وبالتالي يدعوهم إلى قصره، وهو كهف له رائحة نتنة أسوأ من ساحة الإعدام. تشمم الدب الهواء عنده، ونخر، ونفخ، ورسم مائة تجعيدة على أنفه. ماذا دعا الأحمق لأن يلوي ملامحه هكذا؟ قطب الأسد أمام هذه التجهمات، ومن أجل لطف رائحته أُرسل هذا السيد النبيل إلى الجحيم. أما القرد المشهور بالتملق والمداهنة فأطرى هذا الفعل حتى بلغ به السماء، ثم مدح وجه الملك صاحب الجلالة، والبناء الفخم للمكان، والرائحة؛ تلك التي يفوق عطرها كل الروائح الموجودة، حتى أنه ليس هناك عنبر، كما قال المسطول، إلا وضمه هذا البيت. هذا الهراء الماسخ الفاضح كان الملك يكرهه ويسميه صفاقة. أن تتحدث بما يناقض العقل. وكما رأى في الأول تحررا أكثر من

اللازم، مات الثاني بسبب التملق. كانت لدى هذا الأسد شهرة بأنه قريب كاليجولا. وبما أن الثعلب كان في الجوار، سأله الملك النكد عن رأيه في المسألة: قل لي أي رائحة تلك، وكن جريئا. فقال الثعلب: سيدي، أنا مصاب بالبرد. إذا كان عليكم الرد فمن فضلكم أيها السادة العظام استفيدوا من مثل هذه الإجابات. فالفظاظة والمداهنة المكشوفة الوجه لا تتفقان أبدا مع البلاط.

السكير وزوجته

الإنسان مخلوق عنيد جدا حتى أنه لا يمكن لأي علاج أن يغير طبيعته. الخوف، الخزي، كل هذا يثبت عدم فاعليته في شفائنا من الرذيلة التي نحبها. سكير كان قد أنفق كل ثروته، وبالخمر أضر صحته، جلبوه ذات ليلة إلى البيت في حالة ثمالة شديدة. نقلته زوجته إلى مقبرة، وخلعت عنه ثيابه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ولفته في كفن. استيقظ فلم يجد نفسه في الفراش، وهو متسربل بأكمله في غطاء الموتى. علاوة على ذلك، قامت زوجته بتغيير صوتها، وفي يدها أمسكت بشعلة، وأصدرت نخيرا عاليا، وبدت مخيفة في ثوب غريب، كأنها سيدة من طيسفون.[7] وكل شيء تم بشكل سليم، حتى أنه ظن أنه قد ذهب فعلا إلى الجحيم،

7- مدينة عراقية بناها الإغريق قبل الميلاد وورثها الفرس، والتي استمرت كمركز رئيسي للبلاد حتى حلت محلها بغداد في القرن الثامن. وكانت عاصمة الساسانيين والفرثيين.

وراضيا لأن هذا ما يستحقه، قال لطيفه المتخفي: من أنت باسم الشيطان؟ أجابت بصوت أجش: أنا الشيطان، الذي يحمل المؤن إلى الملعونين، وبواسطتي يحشون جوفهم بحجر الكبريت. فقال زوجها: ماذا؟ ألا تفكر أبدا في أن تجلب لهم أي شراب؟

الشبوط

ذكر وسيم من أسماك الشبوط تربى على العز، وترعرع في مياه نقية وجارية، انتفخ بالكبرياء والغرور، وهجر نهر التيمز وذهب إلى البحر. شق طريقه وسط الجمبري والقريدس، ورأى أسماك القُد والحدوق تلهو وتلعب. سألهم بعض الأسئلة لكن بلا جدوى، فكلهم يتحدثون لغة عرض البحر. تضايق لأن أحدا لا يمكنه أن يفهمه، إلا أنه عند الطرف الآخر من التيار، سمع الشبوط وهو سابح اثنين من سمك الرنجة ضليعين في اللغات يتحدثان عن أمور العمل. توقف وتحدث بلسانه: لغة النهر، وفعلا مثله. سأله أحدهما عن اسمه ومن أين جاء، فأجابه المسافر: أنا غريب يا سيدي، جئت وراء متعتي إلى هذه الأنحاء لأتعلم أعرافكم وفنونكم. عندئذ سأله واحد من سمكتي الرنجة: وما هي آخر الأخبار؟ من هم وزراء دولتكم؟ قال الشبوط إنه في الحقيقة لا يستطيع القول، ولا كان مهتما. فقال الرنجة: حسن، ما القوانين؟ أي شكل من أشكال الحكومة؟ هل تُفرض الضرائب دون موافقة

البرلمان؟ أي نوع من المحاكم؟ فقال الشبوط: أف! أنا سمكة رقيقة، ونحن لا نعرف شيئا عن هذه الأمور. قال الرنجة: وأنا لست من نوع السمك المداهن، وأرى أنك لم ترَ ولم تقرأ، وتعرف أقل القليل عن شؤونك. عندئذ أخذ الأحمق المتغطرس شهيقا، والتفت عنهما في نوبة انزعاج عاتية. وبينما كان ينزلق ويتبختر قابل سمكة ريفية من منطقته، سمكة معتادة على البحر: شابا حاذقا من سمك الكراكي يعمل في خدمة قرش قاده إلى صحبة الشغب والفجور. في غضون وقت قليل أصابته العصابة الفاضحة بعدوى الملح والغرين: سرقوا مجدافه، حتى اضطر أخيرا بطريقة مهينة إلى مغادرة البحر. بدأت قشوره تتساقط بالعشرات، وامتلأ جسده بالقروح. ضاع نصف ذيله وخيشومه، وانسل عائدا إلى موطنه هزيلا في حالة رثة وبالية، عاد فارغا وجاهلا كما كان تماما قبل أن يرحل.

العبرة

بعض المتأنقين المتغطرسين الذين يزورون فرنسا وروما، قبل أن يعرفوا ماذا يحدث في الوطن، يبدون مثل صديقنا سمكة الشبوط عندما يعودون. ربما تحسن البلاد الغريبة من حال الرجل الذي يعرف العالم قبل أن يرحل، لكن ذلك الذي ينطلق جاهلا، والذي لا يغويه إلا الخيلاء، لا يعود بشي منها إلا رذائلها.

العندليب والبومة

طائر جوبيتر[8]، الذي كان طوال اليوم منكبا على فرائسه، مثله مثل أي أمير في العالم المسيحي، لم يكن شديد السرور؛ لأنه عند عودته إلى الوطن كان يجد أفراد شعبه دائما في الفراش (بالطبع ينبغي أن يكون أفراد حاشيته أفضل تربية). حيث أن الرؤوس المتوجة لديها الكثير مما تفكر فيه، في بعض الليالي لم يكن يستطيع أن يغمض له جفن. وخطر على باله أنه من الصعب ألا يجد طائرا قط في بلاطه يمكنه أن ينطق كلمة، أو يقص فتيل شمعة، أو مائة شيء لها نفع بالنسبة للملوك الساهرين. بعض الطيور تسعى بقوة، وتفعل ما باستطاعتها؛ لكن عندما يحل الظلام تنام حيث تقف. وبعضها الآخر يتظاهر بالحراسة، ويقسمون ويكذبون حتى يتم الإمساك بهم. لكن لن يتم استغلال طيبة الملك، وها هو يسأل كل أفراد بلاطه عما يجب أن يُفعل؟ قالت النعامة: ثمة حصان حين يتحدث لا يكون أحد أحكم منه، وثمة آخر يجعل الأمر أسوأ عشر مرات. الأمر واضح بالنسبة لي، نحن ننام لأننا لا نستطيع أن نرى. اسأل جوبيتر؛ لا يمكنه أن ينكر ذلك، أن يجعل في الأرض نورا إذا حل الظلام – عندئذ أوقف الجميع حديثها بالضحك، ما عدا الملك الذي شعر بالرغبة في السعال. وقال واحد أكثر معرفة من الآخرين: أقترح أن يمسك طائر

8- كان النسر هو طائر جوبيتر المفضل.

كركي بحجر في قبضته، وإذا نام سيُعرف ذلك؛ لأنه سيسقط الحجر على الفور. لكن بما أن الحرس مفترض أن يكونوا في المقصورة الأعلى من الشجرة، قال الملك لأسباب لها وزنها، إنه لن يقبل بوجود أحجار معلقة فوق رأسه. ثم صاح طائر بجع، وكان على حق: لو زعم أحد أنه سيقوم بالحراسة طوال الليل، فلا يمكنه أن يفعل شيئا كي يجعلنا نصدق ذلك أفضل من أن يغني. وافق جلالته على ذلك، وعلى الفور كُتبت الخطابات التي دعا بها الأمير الجوي كل الطيور التي يمكن أن تغني ليلا إلى البلاط، لكن أغلبهم نظروا إلى الأمر باعتباره شيئا لا يمثل أهمية لهم. بيد أن بعضهم ممن كان لديه طموح كانوا على أتم استعداد للذهاب، لولا أنهم لم يكونوا يستطيعون الحراسة باختصار، وقد يعاقَبون على ذلك، أو على أفضل تقدير لن يمكنهم الحصول على أي مكاسب، بل لن ينالهم إلا مشقة العمل. فقط العندليب، الذي يعرف الإنسان فنه، ملأ قلبه الصغير بفرحة غامرة، وشعر بما هو أكثر من السعادة، حتى أنه كاد يصاب بالجنون، ونادى على كل الطيور وهو يرفرف بجناحيه، وأخبرهم كيف يغني كل ليلة (وهو أمر لم يكونوا يعرفون شيئا عنه؛ لأنهم يكونون قد سقطوا في النوم بسرعة قبل ذلك الوقت). وقال: إن الأمر يوافقني تماما لحسن الحظ، وكأن هذه الوظيفة مرسومة من أجلي، وليس هناك من سبب للشك في أنه سيتم اختياري، عندما لا يكون هناك أحد يمكنه مواجهتي. قال صديقه الطائر الأسود: في هذه الحالة أسرع

إلى البلاط، لم لا تذهب؟ فصاح الطائر المتعجرف: لا في الحقيقة، أنا لم أسع أبدا وراء المجد، ولن أسعى الآن إلا إذا أرسلوا إليّ. أخيرا وبفضل السيدة الشهرة عرف الملك بأمر مهارته واسمه، وسمع عن أنفته فأرسل إليه نصف دستة من المبعوثين، الذين أُجبروا على الانتظار عندما جاؤوا؛ لأن العندليب يجعل كل شيء يتخذ سمت العظمة. شكر بتواضع جلالته، لكنه قال إنه لا يستطيع أن يترك عائلته. فظلوا يقنعونه ويضغطون عليه بقوة، وهو بلا شك في حاجة لمكافأة كبيرة. ومع قيام العندليب بالتسويف، والتدلل عليهم لأيام عديدة، سمع غراب عقعق في الحقل يلهو كيف أن العندليب جعل أعضاء الحاشية تنتظر، فعاد إلى بيته وحكى القصة، قصة الرسالة وأبهة الطائر المغرورة. وكان هناك ذكر بومة، يعيش في نفس الأسرة منذ طفولته، وأضاف الغراب: لم لا تقوم برحلة طيران؟ لطالما سمعتك تغني في الليل، عندما يوقظنا أولادنا التعساء. فقال طائر البوم: أعلم أني لا أملك صوتا جيدا كصوتك، لكن إذا كنت تسمعني أيها الوقح الصغير فلا يجب أن تهزأ بي. *فقال الغراب: قسما بالملك جورج، أنا لا أتهكم، فرغم أن العندليب يغني بشكل أفضل، إلا أنه مغرور جدا، ويتعامل بأبهة مبالغ فيها، وهو الشيء الذي أعرف أن كل الأمراء يكرهونه. فإذا وصلت هناك قبل الآخر*، من يريد كل هذا التودد، ويبقي على مثل هذه الضجة، لا أعرف لكن وجهك الوقور وسحنتك المتواضعة قد ينالان المنصب. سأذهب معك بنفسي على سبيل الصحبة، هكذا

تكلم الغراب بهذه الطريقة الجذابة. وطار الاثنان ليقطعا الشوط البعيد، وكان الملك قبيل هذا قد رأى أن الأمر استغرق وقتا طويلا جدا بالنسبة لأغنية ليلية عندما وصل السيد الغراب وصديقه إلى نهاية رحلتهما. حكيا شأنهما بتواضع، وجرى تسكينهما على الشجرة الملكية. أطلق طائر البوم نغمته في الليل، والتي ضحك النسر عليها فورا، ثم ذهب للنوم واستيقظ بعدها بساعتين، وأراد أن يتبول. فنادى حارسه، الذي قفز على الفور وصاح: سيدي ها أنا ذا. وهكذا، رغم أن طائر البوم لم يكن يستطيع الغناء، إلا أن يقظته أسعدت الملك. في اليوم التالي وصل العندليب، وفي ذيله حاشيته. لكن جلالته لم يكن ليسمح له بأي وسيلة بالظهور على الملأ، لذا أرسل إليه طائرا عاقلا جليلا، بادره بالكلام: سنيور، يا من انتظرناه طويلا، منذ الأمس جاء طائر إلى هنا، وقور رزين كأفضل من اكتسى بريش، والذي قام ليلة الأمس بالحراسة دون أي وعد بمكافأة، وقد أصدر الملك أوامره لك كي تحرس وتغني معه ليلة الغد. فقال العندليب: وما شأني أنا بالأوامر؟ أنا حر، وأقسم ألا تختلط نغمات أحبالي الصوتية الممتازة بنغمات أي من كان، فهي تصنع تناغمها الخاص من الأصوات. لكن من ذلك الذي يملك من الغرور ما يجعله يجرؤ على القيام بالغناء معي؟ وعندما سمع أنه الطائر الأثيني[9] جفل ولم يستطع أن يتفوه بكلمة، وازداد شحوبا وانتفخ، وتقطعت أنفاسه، واجتاح الغضب قلبه.

9- كانت البومة مقدسة في أثينا كرمز للحكمة وضربت على العملات.

أرغى فمه بالزبد، واحتد، وتوعد، وخرجت كل كلماته معا. ملك! طائر داجن غبي شيطان، من يجرؤ على مقارنتي ببومة! فقال فرد الحاشية: من فضلك، احترس، راعِ أي مكان أنت فيه. لكن بما أن الأحمق لم يكن ليستمع لصوت العقل، فقد ذهب وتركه وهو يهذي بكلمة الخيانة. بعد ذلك حكى للملك ما حدث، فقال الملك إنه لم يسمعه قط يغني، وأن طائر البومة ينبغي أن يظل في منصبه، ويعاقَب الآخر بالطرد والعار. لقد قارن بحكمة كياسة أحدهما بغطرسة الآخر، ووضع المتواضع في مواجهة الوقح، ورأى أن أحدهما قد يبلي على نحو أفضل بالولاء والاجتهاد مما يمكن للآخر بالمهارة والحس. طُرد العندليب من البلاط وخدم الطيور البسيطة على سبيل اللهو، حتى رحل ممتلئا بالخزي والأسى، ولعن الملك والحكومة.

العبرة

لا يستطيع الأمراء أبدا إرضاء ذوي القيمة الذين يقيّمون أنفسهم على نحو أعلى مما يجب. ياله من شيء مثير للرثاء! أن يكون لدى بعض الرجال متعددي المواهب مثل هذه القلوب العنيدة المتعجرفة: عندما يجري التودد إليهم يزدادون غرورا: لا يمكن للأرواح الطموحة أن تحتوي فرحتها، والتي عندما تجاهد كي تخفيها، تغطيها بقدر كبير من الكبرياء، وتغدو وقحة جدا مع الأعلى مقاما، ونافدة الصبر مع المنافسين، وتصبح قاسية

الطبيعة تماما. ومثل عندليبنا يماطلون، وقد يكون معهم كثير من الأصدقاء المعززين الكبار، والذين يخدمون الدولة، ممن رأوا بفرحة غامرة الفرصة المرغوبة، لكن هؤلاء الرجال المغرورين يتركون الفرصة تنفلت من بين أصابعهم بتسويفاتهم وكسلهم وكبريائهم أو بأي طرق عنيدة أخرى، وبعد ذلك يجاهدون سدى كي يروا ناصيتها مرة أخرى.

مجلس عقده الجرذان

قط كان لقبه صعبا تماما: كابتن فيليس روديلاردوس[10] ارتكب مذبحة رهيبة بين الجرذان، حتى أنه بعدها بقليل كان من الصعب أن يطل أحدهم برأسه؛ فأغلبهم كانوا مشوهين أو موتى. أما القلة التي فرت من القبر، فعاشت في كهف تحت الأرض، حيث جلسوا يفكرون في ضجر عظيم، ببطون ليس فيها ما يملأ إلا ربعها، وهم لا يجرؤون على التحرك خارجا خوفا من روديلارد؛ الذي كان موجودا في كل مكان. حاولوا أن يداوروه بمائة طريقة، لكن عندما وجدوا أنه لا يمكنهم أبدا تجنبه، تطلع التعساء إليه على أنه شيطان أكثر منه قط. وذات مرة، عندما ذهب الغندور الشهواني يتصيد خليلة هنا أو هناك، اجتمع بقية المساكين ليستغلوا الوقت

10- اسم قط في واحدة من خرافات لافونتين.

الذي يمارس فيه عدوهم الحب، وتشاركوا مخاوفهم بشأن ضيق أحوالهم. قال لهم رئيسهم وكان صاحب عقل: من خبرتي الطويلة أعلم أن الكابتن اعتاد أن ينصب كمينه دون تحذير أو دقة من طبول. وأرى أننا لو تمكننا من سماعه فلن نخشاه نصف خوفنا منه. ولذلك، فإن الطريقة الوحيدة هي أن نأخذ جرسا ونربطه حول رقبته. وعندئذ لن نجعله يقترب أبدا إلا وأعلننا بمسيرته. اقترع مجلسه، واتفق الجميع معه في الرأي. قال أحدهم: بالطبع لا يمكن القيام بشيء أفضل من هذا. لكن من فضلكم، من الذي سيربط الجرس؟ لأني لا أرغب في أن أقترب منه. وهتف آخر: ماذا! فلنربط الجرس! أتحداكم أن باستطاعتي جذب أسنانه كلها كذلك. وبعده ثالث، ورابع، كلهم قالوا نفس الشيء. وهكذا افترقوا كما جاؤوا.

العبرة

هكذا ينصح المواطنون بما يجب أن يحدث، هكذا ينبغي أن يهاجموا البلدة، الآن هنا، وبعد ذلك هناك، لماذا لا يأتون؟ هكذا، غالبا في صالة القهوة، حيث يحكمون الأمة بحكمة، سمعت رجالا لهم صيتهم يقترحون أشياء ويتحدون الآخرين بقدرتهم على أدائها كذلك، كما تحدى الجرذان بعضهم على ربط الجرس.

الخفاش وابنتا عرس

خفاش ضعيف النظر أشبه ببهيمة طائشة دخل رأسا في جحر ابنة عرس، كانت كبيرة ولديها طفل، لديها طبيعة انفعالية، وحملت منذ زمن طويل كراهية قاتلة نحو الفئران. نهضت، وتناولت سكينا، وجرت ناحيته عازمة على أن تسلبه حياته، وقالت: أي وغد في بيتي! ياللوقاحة! ألستَ فأرا؟ اعترف. نعم، أنا متأكدة أنك فأر، وإلا لن أكون ابنة عرس. قال الخفاش: انتبهي يا سيدتي الطيبة، ولا حاجة للشتائم! لست فأرا بقدر ما أنك لستِ جرذا. ماذا؟ أأنا فأر؟ إني أحتقر هذه الكلمة، وشكرا لله الذي جعلني طائرا. انظري إلى أجنحتي، فهي دليل كاف. فلتحيا الطيور، وهكذا خرج ناجيا. بعدها بيومين تقريبا دخل ذو العقل الطائش مرة أخرى عن طريق الخطأ إلى جحر ابنة عرس أخرى كانت تكره الطيور. تركته يدخل، ولم تفه بكلمة، لكنها أمسكت بخناقه تماما، ومضت كي تلتهمه على عشائها. قال الخفاش: فيما يتعلق بالطيور يا مدام، فهذه إهانة، اللعنة على كل الطيور، أنا أحتج بشدة! أنت تسيئين إليّ، بالتأكيد أنت تمزحين، ما السبب الذي يجعلني أدخل في زمرة الطيور؟ كل الطيور لها ريش، وليست لديّ واحدة. أنا فأر. فلتحيا الجرذان، ولتحل لعنة جوبيتر على القطط.

العبرة

الانتهازي الذي لن ينحاز إلى أي جانب، يضطر إلى الانحياز مع كل جانب، وفي صحبته يغير قصته: يحيا حزب الأحرار، يحيا حزب المحافظين.

الذئبتان

ذئبة، لم يمر عليها يوم أوفت فيه بوعودها، كانت تبحث عن مكان تضع فيه حملها. لم يكن لديها فراش، ولا أي سقف يغطي رأسها. طلبت من ذئبة في نفس الجماعة أن تسمح لها باستخدام بيتها، لخاطر السماء، كي تضع فيه حملها. الثانية، التي ظنت أنها ستكون خطيئة لو صدت بائسة حان وقت مخاضها، قالت: نعم، البيت تحت أمرك يا جارتي. لبثت شهرا في الخارج وأكثر، وبعد ذلك أرادتها أن تترك البيت؛ لكن الأولى قالت لها: حتى الآن لا يستطيع أحد من جرائي السير وحده، اصبري أسبوعين آخرين فقط. آمل أنهم سيكونون أقوى قبل نهاية ذلك الوقت. منحتها هذه المهلة، وعندما اقتربت نهايتها، طلبت منها مرة أخرى أن تخرج، أن تترك حجرتها وفراشها. كشرت الأولى عن أنيابها وقالت: أطفالي الآن أقوياء إلى درجة كافية. بعضهم قادر على الصمود وحده. نحن أحرار في البقاء أو الذهاب، لكن لا تسيئي فهمنا، كما يقولون، إذا كان يمكنك ذلك.

العبرة

أي شخص يسمح بدخول الأشرار لن يتمكن بسهولة من إخراجهم مرة أخرى. ما يمكنهم الاحتفاظ به، لن يعيدوه أبدا. وبالوسائل العادلة لن تستعيده منهم، إلا من القبر. لذلك فإنك إذا أقرضتَ وغدا، لا بد أن تعتمد على القانون والقوة، وإلا فإنه سيدعوك إلى أن تفعل ما بدا لك.

الأسد المريض والثعلب

أرسل ملك الوحوش إلى كافة الأرجاء، أنه مصاب بالنقرس، وأمر كل الأنواع أن تزوره بالوفود. فرؤية رعاياه من الحيوانات قد يكون بها بعض السلوى له في بؤسه. وأقسم لهم بإخلاص أنه سينزلهم منزلا كريما ويعاملهم معاملة حسنة. وعلى سبيل الأمان، أرسل وياللعجب، خطابات مرور ممهورة بمخالبه وأسنانه. جاء رعاياه في طاعة، وأرسلت كل الأنواع إليه بعضا منها. فقط الثعالب ظلت في أوكارها. وكانت حجتهم أنهم رأوا أثر كل قدم حيوان ذهب، لكنهم لم يجدوا أي آثار يتضح منها أن أيا منهم قد عاد مرة أخرى أبدا. قال أحدهم وبالفعل هذا مثير للشك، إن القوم المساكين جبناء. نحن نعرف أن الملك لم يكن ليعتدي علينا، لكننا مع ذلك نرغب منه أن يعذرنا. وبالنسبة لتصريح مروره فنحن نشكره على ذلك. ونؤمن أن هذا أمر طيب.

لكن في بلاطه نحن نعرف أي طريق يمكننا الدخول منه، لكننا لا نعرف أي الطرق لنعود منها.

العبرة

أحيانا يجد الرجال الحكماء التوجيه فيما لا يوليه الآخرون اهتماما قط. يفحصون أقل الأشياء. وبالأفعال لا بالكلمات يحكمون على الملوك. ولا يخاطرون أبدا بالسير على ذلك الساحل، الذي عرفوا أن شخصا آخر تاه فيه من قبل.

الساتير والمسافر

كان هناك ساتير[11] في بيته الريفي، وهو كهف مقبض، مع زوجته، وأطفاله العفاريت سيأكلون بعض المرق. لم يكن هناك مقعد أو مفرش مائدة، جلسوا القرفصاء على الأرض المكسوة بالطحالب، بكروشهم ذات القدرات الخاصة. وما إن انكبوا على الطعام، حتى أتى شخص ليحتمي من المطر. دُعي الضيف إلى الجلوس، وفي هذه الأثناء تابعوا هم طعامهم. ارتعش، وبدا باردا كالموت، وأخذ يدفئ يديه بأنفاسه، ولم ينبس ببنت شفة، اتبع النصيحة الطيبة، وتريث حتى طلبوا منه مرتين، ثم انكب

11- في الميثولوجيا الإغريقية الساتير هو روح ذكر من أرواح الطبيعة نصفه إنسان ونصفه حصان ولديه انتصاب دائم مبالغ فيه.

على الحساء، وأخذ رشفة؛ لكن لأنه كان ما زال مأخوذا، وكان الحساء ساخنا، فقد أخذ ينفخ فيه. قال الساتير، الذي كان سقف فمه يستطيع تحمل الماء المغلي: يا صاحبي، ماذا تفعل بحق الشيطان؟ ماذا تقصد بكل هذا النفخ؟ أجابه الغريب: نفخت في البداية لأدفئ يديّ، والآن أنفخ مرة أخرى لأبرد حسائي. قال صاحب البيت: كيف تفعل بها الاثنتين؟! إذًا لست مهيأ للبقاء معي، فأنا أكره مثل هذه الصحبة المشعوذة. ماذا! من نفس الفم تنفخ ساخنا وباردا! يا صاحبي، من فضلك اذهب. شكرا للآلهة لأن سقفي لا يغطي شخصا مثلك. والأمثولة تعني:

العبرة

لا أحد يمكن أن يسيء إلينا أكثر من هؤلاء الذين يملكون لسانا مزدوجا.

الأسد عاشقا

قبل حـــكم علـــيسة[12] ممـــتلئة الجسم، عنـــدما كان بمـــقدور

12- وتعرف أيضاً باسم أليسا أو أليسار (879-759 ق.م) هي ابنة ملك صور ومؤسسة قرطاج وملكتها الأولى. اشتهرت بعد ذكرها في الإنياذة التي كتبها فرجيل. وعرفت بدهائها وحسن التدبير اللذين سمحا لها بإنشاء وحكم قرطاج في شمال أفريقية التي عرفت بتجارتها الواسعة وسيطرتها على بحار المتوسط. كما أن تصاهرها مع سكان شمال أفريقية أوجد الشعب البونيقي الذي استوطن سواحل المتوسط.

الحيوانات أن تتحدث كما أفعل؛ كنا نتحادث مع الأسود، ونتزاوج منهم ويتزاوجون منا. ولم لا؟ فلديهم شجاعة أكبر، وهم من الأسرة الأقدم. واحد منهم كان يسير في غيضة، والتقى فتاة، ووقع في الحب. قال: يا فتاتي العزيزة، أقسم بحياتي أنك جميلة، ولا بد أن تكوني زوجتي. ثم رأى بيتها، وطلبها من أبيها، لكن السيد العجوز كان يفضل زوجا لابنته من طبيعة ألطف، وليس ذا ملامح رهيبة كهذه. لم يكن يستطيع أن يقدمها عن طيب خاطر، ومع ذلك كان من الخطر أن يرفض. علاوة على ذلك كانت الفتاة تحب بطلا شرسا، كما قال، وقد طلبا موافقتي. لو أثرت ضجة الآن حول الموضوع، من يعلم ربما يتزوجان من دون موافقتي. لذلك استخدم حيلة الكلام المعسول لينال منه بالتملق. تشكرك ابنتي يا سيدي على هذا الشرف الذي تفضلت بإضفائه عليها. ومن الوقاحة الكلام عن الصداق المؤجل للوفاة، فأنا أعرف صالح أبنائي. هي ملكك تماما، ومن هذه الساعة يا بني، أعهد بها إلى سلطتك. أتمنى فقط، لأن عروسك لا تملك إلا جلدا رقيقا أحمق، حتى أنك عندما تأخذها بين ذراعيك فثمة خوف من أن تؤذيها مخالبك، أن تتحمل مشقة أن يقوم أحدهم بتقليمها؛ وعندئذ لن يكون على زوجتك أن تخافها. وأسنانك في الحقيقة تبدو طيبة وقوية، لكنها حادة وطويلة على نحو ما. لو تقوم ببردها بوصة أو اثنتين، فلن يكون عليك من لوم، وستحترم في الوقت نفسه، وتعجب بنعومة قبلتك، وتكون أكثر تحررا معك في الفراش. ولأن

رأس العاشق تكون خرقاء إلى هذا الحد، فقد استسلم الأسد، وتركهم بغباء يجردونه من سلاحه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وهكذا بدا زوج الابنة العاشق بعد أن صار بلا أسنان أو مخالب ضعيفا كمدينة سقطت كل أسوارها وبواباتها. وسقط فريسة سهلة للكلاب التي كانت من قبل تطلب رضاه.

العبرة

حيثما يبدأ العشق حكمه المستبد، قل وداعا للحيطة، وداعا للعقل.

الصياد والشبوط الصغير

أعلم أن السمكات الصغيرة قد تكون أكثر، وأن السمكات الأكبر هي الأفضل، لكن كي تتركها تسبح وطوال هذا الوقت تبقى من أجلها؛ وبما أن الصيد شيء غير مؤكد، فأنا أعتقد أنه عمل أحمق. صياد أمسك بشصه في صبر وهو يتطلع ويمني نفسه الأماني، وأخيرا اصطاد شبوطا صغيرا مسكينا جدا، لكن بطبيعته الحادة فكر أنه يصلح كبداية، وفتح جرابه ليضعه فيه. لكن الأسير صرخ بشكل مثير للشفقة: واأسفاه! ماذا أنت فاعل بي؟! دعني أنمو وأكبر، الق بي في الماء. وبعد عامين من الآن ستصطادني مرة أخرى، سأبقى من أجلك، تأكد من ذلك. ثم بعني لشخص ذواقة.

لكني الآن أنا مجرد سمكة سخيفة. مائة مني لن يصنعوا طبقا. ولو حدث هذا، بعد أن ينتهي الطهي، لن يكون مني إلا الجلد والأشواك. فقال الصياد: لدي عقل يصلح لتقييمك، وإذا لم تكن صالحا للطهي، سأقليك. دعك من الوعظ الآن، واشك شجونك للمقلاة.

العبرة

أختار واحدا من بين اثنين فهذا احتمال، أما واحد مقابل عشرة فبالتأكيد هذا مستحيل.

الذئاب والخراف

بين الذئاب والخراف دامت الحروب مئات عديدة من السنين. لم تستطع الخراف قط أن ترعى في سلام، لكن الذئاب كانت تزعجها في وقت غذائها. وفي الحقيقة كان الذئب كل يوم يتعرض لمطاردة كلب الدرواس لطرده بعيدا عن فريسته. وكثيرا ما قطع الراعي رأس الذئب وشق حلقه، وحول فراءه إلى معطف. لكن الآن سعى الطرفان للوئام، وتقابلا كي يتفقا على شروط السلام. وعندما أُنفق بعض الوقت في المجادلات، أرسل كل جانب رهائن من طرفه. ولأنه كان مفترضا من كلتي الأمتين أن تقدم الأغلى قيمة لديها، فقد تلقى الذئاب كرهائن الكلاب، تلك التي كانت

تقف منها مرعوبة، وتلقت الخراف الذئاب الصغيرة ذات الدم النبيل. وهكذا جرى التصديق على السلام، وأُعلن الفرح والسرور في كل جانب. لكن سرعان ما كبرت الجراء وازدادت قوة، وبدأ الأوغاد الأشداء يحنون للأذى والدماء. وترقبوا يوما لم يكن فيه الرعاة موجودين، واصطادوا الصغار من وسط أمهاتهم، وانتقوا واختاروا أفضل الحملان. قتلوا والتهموا الكثير، وحملوا الباقي إلى غابة، حيث انضموا إلى الذئاب الأخرى، الذين عرفوا خطتهم مسبقا. أما الكلاب في أمان الإيمان العام (وأي رباط يمكن أن يكون أكثر تأكيدا!) فكانوا نائمين في هذا الوقت، ولم يفكروا في أي أذى، وماتوا مختنقين قبل أن يسمعوا الإنذار.

العبرة

بعض الأمم، المغرمة بالراحة والدعة، تثق في الأعداء المخادعين، وفي سعيها لتجنب النفقات، تترك نفسها دون دفاعات. لكن الطغاة الماكرين الذين يدعونهم بالأصدقاء، لا شيء يخدم غاياتهم أكثر من هذا. في مواجهة أي ملك جبار، وبغض النظر عن وعوده، اعلنوا حربا دائمة، راقبوا تحركاته، انتبهوا بحرص، ولا تركنوا أبدا إلى السلام، الذي يعرضه الأعداء الخونة.

الدبابير والنحل

فوج من الدبابير يطالب علنا بحقه في بعض أقراص العسل على شجرة. وسرب من النحل يعلن أن العسل والأقراص ملكه. وليلمس متاعنا من يجرؤ. سيُرونه كيف يكون النحل، وعلى الطبيعة. عندئذ يقول الدبابير: سنجرد فرقة من أجله، ولن نهرب في مواجهة النحل، فنحن نحتقره. ومع ذلك، فإن الأمر متروك لزنبور العدالة، الذي يستطيع بكل ما لديه من حس حاذق ألا يصل لأي شيء من الأدلة. وبشكل عام هم يشهدون بصحة أن تلك الحشرات ذات اللون الأصفر والذيول التي تحتوي على لدغات سامة، ذات الأجساد الطويلة والتي تطن بأجنحتها، وكل العلامات التي تميز النحل، قد شوهدت حول تلك الشجرة. لكن هذا من الممكن ألا يعد دليلا بالنسبة لهم، لأن الدبابير لديها نفس الصفات. وقد قام سيادته من أجل سمعته بالاستماع إلى معلومات عش نمل بأكمله. لكن بما أنها لم تزده معرفة وحكمة عما سبق، فقد قال أخيرا إنه ليس بمستطاعه أن يفعل المزيد. وأدلى بخطبة حكيمة ليريهم أن هذه المحكمة لا يمكنها أن تقول أي شيء لهم: فلا بد من إجراء المحاكمة في مكتب المحفوظات. فارتفعت في الهواء نحلة نشيطة حسنة النية، وقالت: بعد إذن سيادتك، لقد تركنا أشغالنا لمدة ستة أشهر، ولم نسمع عن شيء غير الإجازات، ووثائق التسميات الهمجية، وطوال هذا الوقت وأنت تعرف يا سيدي أننا لم نتحرك قيد أنملة. العسل يسوء ويفسد

كل يوم، والمحامون الجشعون يستنزفون جيوبنا. نعترف بأننا اكتفينا من كل مواد الاستدعاء الرسمية تلك. أعتقد أننا يمكننا أن نخبرك على نحو أفضل بأي الطرق التي يمكنك بها أن تقرر الأمر، فما فائدة انتظارنا، وسماع الآراء المؤيدة والمعارضة في المجلس؟ دعنا نمضي إلى العمل وساعتها سترى، من يقول الحق، نحن أم الدبابير. لو كان بمقدورهم أن يصنعوا مثل هذه الأقراص ويملأوا بالعسل كل خلية سداسية الزوايا، فقد ربحوا القضية وسندفع التكاليف. وإذا لم يفعلوا، أتمنى أن يسلموا بالخسارة. وعندما رفضت الدبابير أن تفعل هذا نهض الزنبور القاضي وقال: مرحى! أفض جمعكم يا سادة، ومنح القضية للنحل، مع التكاليف والأضرار.

العبرة

هكذا أود أن يتخذ كل القضاة أحكامهم. أتفق مع الأتراك في الرأي، بأن استخدام التفكير السليم لإنهاء أي قضية، يساوي مائة قانون عام. فهي تؤدي بنا إلى طريق ملتف، وتثير نزاعات جديدة، وتخلق شغبا كبيرا. ما بين المدعي والمدعى عليه، وقبل أن يتوصلا إلى نهاية الأمر، تبدو القضية أشبه بمحارة، حيث تسقط السمكة في نصيب المحامي، ولو أديرت القضية على نحو سليم، لنال كل طرف من الأطراف قوقعة.

الأسد والبعوضة

ابتعدي أيتها الحشرة الحقيرة، المولودة من زفير الأرض. هكذا تحدث الأسد مخاطبا البعوضة، التي ردت عليه: أيها المستأسد، أتعتقد أني سأتحمل الإهانات؟ لا.. وأعلنتها حربا عليه حتى النهاية. وقالت للمستبد المتغطرس، دون ذرة من خوف، سترى يا سيدي الملك، إلى أي حد أبالي بكل ألقابك وأسنانك ومخالبك، التي يقف أمامها حمقى كبار في رعب. سأكبح غطرستك بسرعة أيها الوحش الملعون. ولم تكد تنطق بهذه العبارة، حتى أعلنت الهجوم (وقامت بكل الأدوار من نافخ البوق إلى الجنرال). تنقلت برشاقة من مكان إلى آخر، وتلاعبت أمام وجه الأسد، الذي عض الهواء وضربه، لكن البعوضة تفادته في كل مكان. وتحينت وقتها، ثم هجمت على رقبته، ومنها تحركت ولدغت ظهره، وهناك ثبتت، وأثارت جنون جلالته. لمعت عيناه كالشرار في رأسه، وأرغى وأزبد وزأر، وارتعد كل ما هو موجود في الجوار، وأخفى نفسه خوفا من ذلك الإعصار الشامل، وسبب كل هذا الخطر الرهيب هو أقل ما يمكن أن يشك فيه المرء: حيوان أشبه بذرة صغيرة. بمائة حركة طيران عشوائية أغاظت الوحش، وقادته حيث شاءت. اعتلت منخريه، وضحكت لرؤية كيف مزق عدوها لحمه بكل هذا الغضب، وجرى مهتاجا والدم يغطيه عبر الغابة المرعوبة. وظلت تهاجمه، حتى سقط الأسد مقطوع الأنفاس، ونزف حتى الموت. وطارت المنتصرة الطنانة المبتهجة من مقعد الحرب الكئيب.

وكما أعلنت عن الهجوم بمرح، أعلنت عن النصر. لكن في طريقها لإذاعة قصتها، منتفخة ومعمية بمجدها، قابلت شبكة عنكبوت في طريقها، وسقطت فريسة حمقاء لها.

العبرة

هكذا يمكن *لشخص عبر المحيط، أن* يموت غريقا مختنقا في *شاطئ* عام.

الحطاب وميركوري

في الأزمنة القديمة، عندما كان جوبيتر حرا تماما، كان هناك عامل يكسب قوت يومه بقطع الشجر، وفقد رزقه مع ضياع فأسه. سيحزن قلب أي شخص قدر له أن يسمع الأنين الحزين والمؤلم الذي أطلقه هذا المسكين: فلم تكن لديه أي أدوات يبيعها مرة أخرى ويشتري فأسا آخر، ياللرجل المسكين! كان كل ما لديه، وهو لا يعرف ما العمل أو كيف يعيش. وإذ احتبست الدموع في عينيه، أخذ يصرخ: فأسي! يا فأسي العزيز! يا جوبيتر المحب الجميل! أعد لي فأسي. سمع جبل الأوليمب صراخه، وجاء إليه ميركوري فتى البريد، أو البريد الطائر (يناسب شخصيته كلا اللقبين لأنه إله الكذب الأجرد عديم اللحية، واشتهر بنقل الأخبار والطيران) وقال: فأسك لم يضع، ابتهج يا رجل، هو معي هنا؛ لكن

هل يمكنك أن تعرف أيها فأسك؟ فقال الحطاب: أعرفه جيدا. فقال ميركوري: امسك، وأعطاه فأسا من ذهب ثقيل. فقال الحطاب: لا شأن لي بهذا. وقال نفس الشيء عن فأس من الفضة. لكن عندما ظهر فأسه الحديدي، صاح: أقسم أن هذا هو فأسي. بارك فيك الرب يا سيدي. فقال له ميركوري، كي يكافئ أمانته: كلها ملكك، أعطيها لك. وسرعان ما ذاعت القصة، فقد جرى اكتشاف الطريق إلى الثراء: ما عليك إلا أن تضيع فأسك. والحمقى، الذين لا يملكون فأسا باعوا ملابسهم وأدواتهم ليشتروا واحدا، وأيا كان ثمنه، كان يُشترى كي يضيع. وما إن كانوا ينادون، حتى يجيء إله اللصوص والتجار، الذي تصادف ألا يملك شيئا آخر ليفعله. وأعطى جلالته كل واحد اختيارا من ثلاثة: فكان الأوغاد الكاذبون ينكرون فؤوسهم، ويقسمون أنهم فقدوا فأسا ذهبيا. لكنهم ما إن كانوا ينحنون لالتقاطه، حتى يقوم ميركوري بقطع رؤوسهم، ويتركهم هناك راقدين.

العبرة

ترينا الأمثولة أن الصدق دائما هو أفضل سبيل.

الأرنب البري وأذناه

ثمة حيوان غبي له قرون -أو حيوان آخر- أثناء هرولته

للحصول على بعض الكلأ، اصطدم بخاصرة الأسد؛ الذي -كي يحتاط من وقوع حوادث كهذه في المستقبل- أرسل خطابات رسمية بموجبها ينفي من أرضه كل من له قرن على رأسه. وعندما ذاع الأمر، تسللت الأيائل خارجة مع الثيران والكباش، ورحلت العجول مع أمهاتها. وبينما كانوا يتحركون في كل مكان إلى بقاع أجنبية، رأى أرنب بري خائف ظل أذنيه، وفزع لمرآهما؛ وخشي أن يقول نذل ما إنهما قرنان. ما الحل؟ قال، إنهما طويلتان، ولا أستطيع أن أجد لهما حلا. حسنا، يا جاري يا صرصار الليل وداعا: إن أذناي هما قرنان أيضا، سأسير راحلا؛ فهما طويلتان جدا، وهذا يكفي. بل إنهما حتى لو كانتا قصيرتين كأذني النعامة، فلن تخلصاني من مخاوفي؛ لأنهم لو أمسكوا بي سأذهب إلى القدْر. فقال الصرصار: ويحك! هل أنت سكران؟ قرون لدى الأرانب البرية! أي كلب يقول عليها هذا الكلام؟ إنها آذان. فأجابه الأرنب المسكين: ولو! لأنه كما لا بد أنك تعلم؛ سيرونها قرونا، وربما قرون لوحيد القرن. إنهم يطلقون على سيقان الأرانب الأمامية أجنحة، لا حجة لديّ أمام الملوك.

العبرة

في بلاط الأسود، وفي حالة الخيانة، أفضل أن أثق في قدميّ أكثر من عقلي.

الجرذ والضفدع

جرذ تعوزه الفضيلة والرشاقة، له حال فريد، لا يعرف صوما أو إجازات، لكنه يحب كرشه أكثر من روحه، ويبدو زلقا كأي حيوان خلد. ذات يوم كان لديه وقت فراغ، فذهب إلى المستنقعات طلبا لبعض الهواء العليل. وهناك التقى ضفدعا ليس مفرطا في السمنة، قال: أنا خادمك يا سيد جرذ. وبطيبة شديدة على ما يبدو دعا الغريب إلى الماء وقال: أنا أعيش في تلك المستنقعات هناك، تعال معي وسأعاملك كأمير. الجرذ الذي كان قد انتوى من قبل القيام بنزهة لم يكن بحاجة لسماع المزيد، لكن الضفدع ألقى محاضرة كاملة حول الحمامات العامة الريفية، وبنائها، وحول الرحلة الطويلة، والاستجمام الذي سيجده في موطنه البرمائي، وسلوكياتهم، ومائة شيء يمكنه أن يحكي منها قصصا طيبة في أمسيات الشتاء لعشرة أعوام تالية، بالقرب من النار في مديح الماء. وبما أنه كان يعيش دائما على الشط، فلا شيء يمكنه أن ينعشه أكثر من ذلك. أسعدت هذه الأسباب الجرذ أيضا، حتى أنه كان متلهفا لدرجة الجنون كي يذهب. قال الضفدع: لكن بما أن أبناء جنسك المدللين خوافون، فلا يمكن للمرء إلا أن يكون حريصا معكم. فقال الجرذ المحتال: في الحقيقة أنا أعوم، لكن ليس مثلك، وكما تعرف قد تحدث تشنجات عضلية أو أشياء أخرى. فقط لو أمكنني الحصول على بعض المساعدة الصغيرة. قال الضفدع: من فضلك اهدأ، وكي نمنع كل أذى، لديّ

حيلة جُربت ألف مرة. ثم أخذ قطعة من القصب وربط إحدى القدمين الأماميتين للجرذ إلى ساقه الخلفية، وانطلقا معا. لكن آه منك أيها العالم الشرير! كم هي شريرة قلوبنا كلها! سبح هذا الشيطان النقاق إلى الجانب العميق حيث سعى عندما أدركه أن يجذبه إلى الأعماق. وفكر أنها كانت ضربة موفقة؛ أن يقابل هذه القطعة اللذيذة من اللحم الطيب المفيد، وهكذا استمر في طريقه. صرخ الجرذ الذي شعر أنه هالك، وسب نفسه خوفا. ورغم انه أحيانا وطوال نصف عام لم يكن هذا النذل يتلو صلاة قط، إلا أنه كما يقول المثل: ذلك الذي لا يستطيع الصلاة، عليه الذهاب إلى البحر. والآن، بكل الكلمات المعسولة، وبكل ما يتحمله قلب جبان مرعوب، دعا الآلهة، وداهن الضفدع. لكن، لا، فذلك الوغد الكاذب قاسي القلب أصم عن كل احتجاجاته، وينتهك قانون الأمم. أحدهما يسحب متثاقلا ويكدح كأنه حصان، والآخر يقاوم بكل قوته. يسعى الضفدع كي يهبط إلى أسفل، والجرذ يحاول ألا يسمح بذلك، لو كان هذا يرضي الآلهة. وبينما كلاهما يكافحان في سبيلين مختلفين، رأت حدأة كانت تحلق فوق المكان ما كان يدور بين صاحبينا، وكانت لترضى بأن تشاهد المعركة من بعيد لو كان ذلك آمنا؛ لكن لأنها كرهت أن تضيع فرصة إشباع بطنها، فقد أخذتهما هما الاثنين. وبهذه النعمة المزدوجة التي تجاوزت أمنياتها، تعشت كأنها لورد: على اللحم والسمك.

العبرة

من يتورط في مؤامرة، طلبا للقوة، كثيرا ما يسقط في الفخ: دون أن يشك أبدا في أن ممارساته مرصودة من الحوادث. ما الذي يجعل ضفدعا يأبه بحدأة وهو في الماء؟ لكن النذالة تكافئ فاعلها.

القط والجرذ العجوز

سمعت -ولو كانت هذه كذبة، فقد حصلتَ عليها بثمن بخس كما حصلتُ عليها أنا- أن قطا ضخما ذا اسم جبار؛ روديلارد آخر على سبيل الشهرة، إسكندر القطط، أتيلا[13]، بلاء على الجرذان، ألحق دمارا مروعا وأذى كبيرا بهذه الأمة الأخيرة. واعتُقد أنه سيفني العالم، ويبتلع كل جرذ فيه. أصحاب الذيول الطويلة، القاصي والداني، تملك منهم خوف هائل؛ حتى أنه لم يكن هناك جرذ واحد في نطاق ستة أميال يجرؤ على المغامرة بالخروج فوق الأرض. شعر عدوهم ذو العقلية الدموية بالأسف لأنهم صاروا على هذا القدر من الحياء. وعبثا ظل يراقب ويكمن في الجوار، فلم يخرج واحد على الإطلاق. قال: الأوغاد أحياء، أسمعهم يتحركون، ولا بد أن أحتال كي أجتذبهم إلى الخارج، لأني واثق

13- أتيلا الهوني ملك هوني عاش بين عامي (406-453 ق.م) كان آخر حكام الهون وأقواهم وأسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة الاتساع، عاصمتها في ما تسمى المجر اليوم. امتدت إمبراطوريته من نهر الفولجا شرقا وحتى غرب ألمانيا غربا.

أنه لا يمكن الوصول إليهم حيث يسكنون. عندئذ صعد فوق رف، وعلق نفسه في خيط على ارتفاع قدم، وتدلى مقلوبا برأسه، كأنه ميت. ظن كل الجرذان أنه سقط في فخ وهو يسرق الجبن، أو يقضم لحم الخنزير المقدد، وربما لوث الفراش، أو قتل طائرا، أو ارتكب أي شر آخر بتحريض من الشيطان، أو من طبيعته الأكثر خبثا، ولأجل ذلك شنقوا المخلوق الشرير. السجناء، الذين كانوا يريدون الخبز، شكروا السماء، وكانوا في غاية السعادة. أخرجوا خطومهم، وبدأوا الآن يختلسون النظر خارجا ويرتدون سريعا مرة أخرى، حتى اكتسبوا من الجرأة ما جعلهم يغادرون مخبأهم، ويهرولون جيئة وذهابا في الغرفة. وفجأة هبط عليهم المجرم الغادر، الذي بُعث إلى الحياة من غير طبيب. هبط عليهم في هجمة عنيفة حتى أن كل ضربة قتلت إما جرذا أو فأرا. حاول بعضهم المقاومة، لكن بلا جدوى. امتلأت الأرضية بالقتلى. ياله من حكم بالإعدام قام به مخلبه! لكن عندما رأى المحارب المكير أصحاب الخفة والرشاقة منهم يهرعون إلى الأركان، ويدخلون جحورهم المحدودبة، هتف بهم: رغم سرعتكم أعلم أنكم ستأتون إليّ في النهاية. لم تعرفوا هذه الخدعة من قبل قط، لكن بإمكاني أن أريكم مائة خدعة أخرى. كان قد قتل منهم ما يكفيه ليقتات عليه بضعة أيام، لكن عندما انتهى مخزونه، أوفى بكلمته، ونال منهم بحيلة جديدة تماما. قفز داخل حوض زهور، ووقف يغطى نفسه بنثار الورود لمدة نصف ساعة، حتى رأى أنه تلطخ بما

فيه الكفاية. فسار إلى معلف مفتوح حيث رقد متكوما وأبيض كالثلج، وانبرم كقطعة من العجين. انتظر قدوم المتضورين جوعا إليه، ومن وقت لآخر صار يلتقط بعضهم. لكن جرذا عجوزا، ممتلئا بالندوب، وقد فقد ذيله في حروب سابقة، وقف عند مدخل الجحر، ونادى قطنا: أنت يا سيد محتال، شنقك أو زهرك لن ينفعاك، فأنا أعرف خدعك جيدا كما تعرفها. كنتَ قطا وما زلت، فلتتغير إلى أي قالب أو شكل تشاء، بل فلتكن قطعة من الخشب، فلن أقترب منها. فقال القط: لعمري إنه على حق، وهو يعلم عن حكمة أن الريبة هي أم الأمان.

ابنة عرس والجرذ

ابنة عرس جائعة مسكينة وضامرة، لها فكان تجعَّدا واستدقت منها الخاصرة. لم تكد تتعافى من ضعفها، حتى أصابتها نوبة من المرض. صادفت صومعة، وتسللت إلى داخلها عبر ثقب صغير. منَّت نفسها برؤية المخزون من الحبوب، ولم يكن بالتأكيد لأي شخص حريص أن يشعر بطمع أكبر مما شعرت به. وظنا منها ألا أحد يمكنه أن يؤذيها، انكبت على الحبوب وأكلت منها كأي فلاح. في الليل كانت تنام وتشخر على راحتها، ونعمت بالسلام والهدوء وأربع وجبات كل يوم، وهواء صحي، وطعام لذيذ، وهَمٍّ قليل. سرعان ما تغيرت هيئتها الهزيلة، وبدت كأنها مخلوق آخر

تماما. في الحقيقة سيكون من الصعب للغاية لو أن كل هذا لم يصلح من هيكل المرء. وذات مرة، بينما كانت جالسة إلى طبق من القمح، سمعت ضجة، فتركت غذاءها، وجرت إلى الثقب لتنجو بحياتها، واعتصرت جسدها كي تمر عبره، لكنها فشلت. وبينما كانت تفتش في كل مكان حولها، ولا تجد أي شق تخرج منه، لمحت جرذا، وقالت له: من فضلك ماذا ينبغي أن أفعل؟ لقد ضللت طريقي، أين الثقب؟ فقال الجرذ: لا، طريقك صحيح، لكنك أسمن مما يجب. ظلي أسبوعا واحدا، وصومي يا سيدتي الطيبة، حتى تصيري نحيلة كما كنت عندما جئتِ. وعندئذ ستجدين الثقب هو نفسه.

العبرة

أي إنسان في مركز مربح، وصار ثريا بنهبه الأمة، غالبا ما يرغب في الاستقالة، لكنه نادرا ما يعيد المال.

الذئب واللقلق

الذئاب مشـهورة في العموم بنهمها للأكل، بنفـس القـدر الذي تشتهر به الثعالب بالخداع. واحد منهـم، في وليـمة ضأن، التهم لحمه بسرعة هائلة، حتى أن عـظمة دخـلت في حلقه، وعلـقت هناك سريعا. يـقسم بعـض الكُتاب العالمـين ببـواطن الأـمور أنها

كانت عظمة العَجُز، ويقول آخرون إنها كانت واحدة من الفقرات العنقية. لكن دعك من الخلافات، بما أنها كانت في النهاية عظمة واحدة، فإنها لم تكن بالعظمة الصغيرة. وهناك وقف السيد الذئب، وفي بالغ الأسى قام بإشارات أنه يريد نجدة سريعة. وحسنا فعل بعدم استطاعته الصراخ، لأن روحا واحدة لم تكن لتقترب منه. وأخيرا عرض حاله على طائر لقلق، وشرع الجرَّاح ذو الساقين الطويلتين في العمل، وعلى الفور أخرج العظمة، وعندما انتهى، طلب أجرته. قال الذئب: بالطبع، كل من أخرج رأسه دون أذى من بين فكيّ، يمكنه أن يزهو بمثل هذه السعادة، كأقصى ما يمكن أن تدفعه كل المناصب من أجور بالغة. هذا شيء لم يحدث من قبل قط، وربما لن يحدث مرة أخرى أبدا. لكن ياللجحود من رذيلة لعينة! ان تنجو بحياتك وتكون وقحا هكذا لدرجة طلب الأجرة! خذ حذرك أيها الشاب، ولا ترى وجهي مرة أخرى أبدا.

العبرة

بعض الناس يبلغ بهم الأذى والشر حد أنهم يطلبون منك الشكر لو تركوك وشأنك.

الضفادع تطلب مَلكًا

الضــفادع بعد أن قضــت عصــورا في ظل حــكومة ديمــقراطية،

ضجرت منها، واتفقت أن تستبدلها بحكم ملكي. وتضرعت متوسلة لجوبيتر كي يمنحها ملكا، فاستجاب الإله، وأنزل إليهم من السماء ملكا مسالما جدا، لكن فقط أثناء هبوطه، أثار ضجة كبيرة؛ حتى أن كل الضفادع، التي ما هي إلا كلاب جفولة جبانة، ارتعبت وغطست تحت الماء. وظلوا ردحا لا بأس به من الوقت بعدها، وسط الأعشاب. بلغ خوفهم حد أن أحدا منهم لم يجرؤ حتى أن يتطلع إليه؛ ذلك الذي حسبوه عملاقا ما، أو ما لا يعلمه إلا الرب. بينما لم يكن هذا الملك إلا قطعة من جذع شجرة. وأخيرا صعد ضفدع جريء، لكنه أخذ حذره كي لا يسبح أقرب من اللازم. حتى رأى أنه راقد هادئ جدا، فتابع اقترابه، وإن كان في رعب شديد. لكن عندما رأى رفاقه أن ملكهم المتين لم يبادره بالأذى، احتشدت البركة في ظرف نصف ساعة بالضفادع. آه! ياله من شيء جميل أن يلهوا حول ملكهم: ألطف من لبس التاج. وسرعان ما ألفوه حتى أنهم نحوا كل احترام جانبا؛ فقفزوا على ظهره وركبوه. لم يقل الملك شيئا، وظل على وداعته، وتركهم يفعلون به ما يشاؤون. لكنهم يكرهون هذا، ويريدونه أن يتحرك. مرة أخرى دعوا جوبيتر، وأوجعوا رأسه بشغبهم الصاخب، أن يمنحهم ملكا يتحرك. جُنَّ جوبيتر من إزعاجهم له من جديد، وأرسل إليهم طائر كركي لعينا نهما، لم يكن مهيأ إلا لقتل وذبح وأكل كل ما يأتي في طريقه. وبصوت أعلى كثيرا الآن يصرخ الأوغاد: يا جوبيتر! اعتقنا من الاستبداد! لو استمر على ذلك، سيُقتل جميعنا فردا فردا، إنه

الشيطان بلون كُمَيت. فقال جوبيتر: لن أحابي الحمقى أكثر من ذلك. كان بإمكانكم أن تحافظوا على ما كان لديكم من قبل. لقد تركتم ائتلافكم الحر القائم على المصلحة العامة كي تسعوا وراء ملك، ثم كان الملك وديعا أكثر من اللازم؛ فلا بد أن يكون لديكم ملك ذو حيوية ونشاط. آمل الآن أن يكون لديكم هذا الملك يا سادة. أنتم لا تتغيرون قط دون لعنة، فاستبقوا هذا، خوفا من أن يأتيكم من هو أسوأ.

العبرة

الشكر لله، فهذه الأمثولة ليس مقصودا بها الإنجليز؛ فهم راضون، ولتغيير حكومتهم هم كارهون.

الذئبة والحمل

إنه لأمر لا يقبل النقاش، أن الأقوى منطقه هو الأفضل. ذات مرة اشتد الحر والقيظ، فذهب حمل كي يرطب جسده بالخوض في جدول رقراق. *(بالنسبة للقافية فإن الحمقى تيمة قوية)* عندما *أتت ذئبة (بالتأكيد أرسلها الشيطان)* بحثا عن مغامرة ما. ولم تكد تلمح رمز *البراءة المسكين، حتى بدأت شجارا خاليا من المعنى.* بدأت تغمغم وتلعن وتسب، وتتساءل كيف جرؤ أن يفسد

شرابها، هذا الكلب السام القذر. لعمري فقد جعل الماء غليظا كالطين. فليعاقب جوبيتر من فعل ذلك يا سيدتي، هكذا أجابها الحمل، أحب أن نفكر بهدوء، وسأثبت لك، أني أسفل منك بعشرين ياردة. ولأني ببساطة أتوق إلى المغادرة، فمن ثم أصل إلى هذه النتيجة الطبيعية: أني لا أستطيع بوقوفي في هذا المكان، أن ألوث ماء حضرتك. فقالت الذئبة: بل تلوثه، وفي العام الماضي قلت بعض الأكاذيب عني. فقال الحمل: أقسم أني لم أكن قد ولدت حينها، فأنا لم أتوقف عن الرضاعة من أمي بعد. فقالت: إما أنت أو أخوك. فقال: لم يكن لي أخ قط. فقالت: إذًا كانت أمك، أو أي قريب آخر لك؛ لأن كل جيلك الشرير يكرهني، وكلابكم ورعاتكم أيضا. ودون أي شيء آخر يمكن فعله، حُمل الحَمل إلى الغابة وصار طعاما للذئبة القاسية.

الأسد بعد أن صار عجوزا

أسد مغـوار- صـار الآن عـجوزا، أطـرافه وفـكاه مخـدرة وباردة، رقد يفكر على فراشه الملكي، وفي كل رأسه نادرا ما تجـد نابًا، وقد بليت مخالبه حتى بلغت أصول ساعـديه من التمزق (لكـن كل شيء عنـدما يبلو يصير أسوأ). وبينما كان يضـنيه الـندم، متشـكيا من شبـابه الذي أُنفق هـدرا، لم يعد رعايـاه المتـمردون يدفعون، ذلك الإجلال الذي كانوا من قبل يقدمـون. بل يعاملونه باحـتقار

وازدراء: فالثور يدفعه بقرنه، والحصان يتحداه بحوافره. لا يستطيع لسان أن يصف شعور الأسى الذي أحسه من هؤلاء الأعداء المهينين. ودخل الحمار، وعندما رأى الأسد ذلك الجبان أيضا ينسى واجبه، قال وهو يموت: حتى أنت يا بروتوس؟

الطبيبان

طبيبان من خريجي الجامعة، لديهما سنوات خبرة عديدة، ومدربون لتطوير مهاراتهما، أُرسلا إلى رجل مريض. تحسس أحدهما نبضه وقال لا فائدة، لكن الآخر قال إنه قد يتعافى؛ فلديّ آمال كبيرة، سنعطيه بعضا مما أحمل من الأنتيثاناتيكوم[14]، فصرخ الأول: لا، إنه أضعف من أن يحتمل. فجاوبه المريض: نعم بالفعل يا سيدي، أنا مريض جدا. فجلس الطبيبان، ودخلا في مجادلة عميقة: أحدهما يقتبس أربع كلمات بالعربية، والآخر يقتبس قولا مأثورا باليونانية. حمي بينهما الوطيس، وتعلق كل واحد منهما برأيه. والنتيجة أنهما كتبا وصفة طبية لم تلق قبولا تاما من أي منهما. زاراه بضعة أيام، وأنفقا أياما أكثر في جدال معرفي عميق. لكن بينما كانت حياة المريض تمضي بسرعة تامة، لم يستطع أن ينتظر حتى يتفقا، ولذلك فقد رحل، وعندما

14- كلمة تعني المتناقض ولكن في تركيبها تحمل شبها بأسماء مركبات الدواء.

مات، كان الاثنان ما زالا يتجادلان؛ قال أحدهما: قلت لك إن عينه كانت تنذر بأنه سيموت. وصاح الآخر: أنا متأكد تماما أني لو صدقت هذا لكان ما زال حيا.

الحب والحمق

الإله الساحر الذي جاء منذ آلاف عديدة من السنين بقوسه ليقوم بذلك العمل الشاق، وهو ما زال في الخدمة، لكنه ليس إلا صبي. فنونه غامضة؛ حتى أنه لتفسير عمله وأسلوبه وسهامه وجعبته وشمعته، سيستغرق الأمر العديد من رزم الورق؛ وهو أكثر مما لديّ من استعداد لملئه. لذا فسأكتفي، بما أنه أعمى، بإخباركم كيف فقد بصره، وما حدث له في أثناء ذلك، ثم تصبحون على خير! انتحى الحب والحمق أحدهما بالآخر، كما هي العادة لدى الصبيان أن يجروا معا. وزحفا إلى خلوة في السماء، ليلعبا سبعة أو أحد عشر[15]. وهنا *يا أيها السادة الكرام*، قد *يلاحظ المقامرون أي أذى يأتي من اللعب. فهناك ثار شجار حول* رمية النرد. قال الحب: إنها ثمانية. وظن أنها واضحة لا ريب فيها. وقال الحمق: لكني واثق أنها تسعة، أيها الغشاش الصغير، هذا الشوط لي.

15- لعبة من الألعاب المرتبطة بشرب الخمر واسمها (سبعات وأحد عشرات ومزدوجات) وتُلعب بالنرد حيث يمكن أن يلعبها اثنان أو أكثر، والفائز هو من يستطيع أن يلقي النردين ويأتي برقم سبعة أو أحد عشر أو رقمين متشابهين.

وأخيرا علت نبرة الكلام إلى درجة كبيرة، أثبت الحب لخصمه الغاضب كذبه، وعندئذ انتفض الحمق واقفا، وألقى بحجري النرد على الحب، وأصاب عينيه. صرخت فينوس طالبة الانتقام، وذرفت دموعا كثيرة حزنا على ناظري ابنها، حتى كادت تتلف ناظريها. وأقسمت أن تتخذ العدالة مجراها، ودعت الحمق بالوغد وابن العاهرة: كيف فعلتها؟ سأجعلك تدور حول نفسك خوفا وقلقا. قال الحمق: في الحقيقة كان ذلك برمية حظ. فصاح الحب باكيا: أنت لئيم متلاعب بالكلمات! وشهق بالبكاء. وعندئذ جاء إله الرعد مع بقية الآلهة والإلهات، ليناقشوا ما حدث بين الحب والصبي أمام كامل محكمة الآلهة. كان الديوث[16] وإله الحرب غاضبين جدا، وحكما على الحمق بالموت. لكن عندما سألتهما مينيرفا: لماذا؟ قالا: لأن... فقالت تيميس: تحررا من غضبكما أيها الإلهان، وضعا في ذهنكما عمره. وعندئذ بدا أن المجلس يميل لجعله يدفع غرامة فقط للحب. لكن الأم المكلومة صرخت: لن يجدي هذا، سآخذ عينيه الاثنتين. Secundum legem Talionis[17]، ينبغي أن يدفع ثمن إتلاف البضاعة. طلب منها أبوللو أن تكون متحضرة. وقالت جونو: أن نجعل طفلين ضريرين فهذا فعل

16- الإشارة ربما إلى هيفيستوس إله الحدادة والنار والصناعة والبرونز في الميثولوجيا الإغريقية، ابن زيوس وهيرا، والذي هوى من السماء عند ولادته إلى قعر بركان فتشوه جسده وصار الإله الأعرج، وأقبح الآلهة منظرًا، عكس أخيه الجميل فمالت عنه أمه، وربته الحوريات في البحر فحذق الصناعة والحدادة، وصار إله النار. تزوج هيفيستوس أفروديت إلهة الجمال والرغبة كعقاب فرضه زيوس عليها فخدعته ومالت إلى أخيه الجميل آرس مما أورثه مرارة كبيرة.

17- وفق قانون الانتقام (باللاتينية في الأصل)

شيطاني. وأعطى هذا الإشارة لجوبيتر كي يقول: سأفرض عقوبة، قد تريح الحب. ماذا ينبغي له أن يفعل؟ ليس باستطاعته السير وحده، وبالتالي تقرر من قبل جميع الآلهة في الأعالي؛ أن يكون الحمق دليلا ومرشدا للحب.

معزاة وخروف وخنزيرة

معزاة كانت تدر لبنا ممتازا، وخروف كان صوفه ناعما كالحرير، وخنزيرة سمينة، ذهبوا إلى السوق الكبير في نفس العربة؛ لا ليستنشقوا الهواء، ولا كي يتفرجوا على العروض، لكن -كما قيل لي- بصراحة للبيع. وطوال الطريق كانت الخنزيرة تزعق وتصرخ إلى درجة تكفي لإصابتهم جميعا بالصمم. لو كان وراءها مائة وعشرون جزارا لما أمكنها أن تفعل المزيد. تعجبت المخلوقات الأخرى منها، ولم تستطع ولا في أحلامها أن تعرف ما الأمر. ظنوا أنه لا بد نابع من الخوف، ومع ذلك لم يتصوروا أي خطر قريب. قال لها سائق العربة: ماذا تقصدين؟ من أعطاك سببا كي تشتكي؟ لقد أفزعتنا صرخاتك، لماذا تثيرين هذه الضجة الرهيبة؟ من فضلك خذي القدوة من رفقتك، اصمتي أو تحدثي بطريقة متحضرة. انظري إلى هذا الخروف، إنه يظن أنك مجنونة. هل نطق بكلمة واحدة طيبة أو خبيثة؟ لا: فهو حكيم. فأجابته الخنزيرة: سيسكن جسده الشيطان لو أمكن له أن يحدس

إلى أين تحملنا أو لماذا. أنا واثقة أنه كان ليزعق عاليا مثلي تماما. هو معتاد على المجزات، ولذلك يعتقد الأحمق فقط أنك ستأخذ صوفه. وهذه السيدة الطيبة ذات اللحية ليس لديها سبب كبير كي تخاف؛ فهي تُحلب يوميا وتعتمد على هذا، ستستنزفون ضرعها، وينتهي كل شيء. وربما يكون الأمر هكذا، وربما لا يكون؛ لكن هل كنت لتجدني ذاهلة مثلهما، أنا غير الصالحة لأي شيء، بينما ما زالت بي أنفاس سارية، ولا أخاف من شيء هائل كالموت؟

العبرة

حقا قيل بدهاء، من كائن ليس أفضل نشأة: نعم كل هذه الشكاوى الحزينة والخوف من أجل الشيء الذي أُجبرت على تحمله. ورغم أنها كانت تعرف أنها في سبيلها إلى الموت، إلا أنها لم تستطع أن تغير مصيرها. لذلك أعتقد أنه حينما يضيع كل شيء، فإن هذا الذي يرى أبعد من الآخرين، هو أكثر من يعاني.

الكلب والحمار

لا شك أن مساعدة بعضنا البعض قانون لا يمكننا العيش جيدا بدونه. لكن ذات يوم (وأنا لا أعرف كيف تأتى له أن يمر مرور الكرام) حدث أن حمارا -وهو في غير هذه الظروف مخلوق أمين،

ذو طبيعة خيرة- تجاهل ذلك القانون. كان مسافرا في صحبة كلب ضخم، دون أفكار عن صراع أو هموم، وتبعهما ذلك الذي كانا هما بضاعته. وعندما وصلوا إلى بقعة بها بعض العشب الجميل، ذهب الأخير للنوم. لكن حماره، الذي كان عاشقا للمرعى الطيب، استغل العشب على نحو أفضل من سيده، وانكب يأكل بحماس. لكن الكلب المسكين وقف يتضور جوعا في الجوار، وقال: فليحل الخير العميم على قلبك يا رفيقي العزيز في السفر، أنت صديقي المحب، لكن أيها السيد الرمادي طعامي من اللحم في خُرجك. من فضلك، انحنِ ودعني أُخرج بعضه. لم آكل منذ خرجنا من البيت. فلم يتلق ردا، طلب مرة أخرى، لكن لا؛ فالسيد محب الطبيعة الرعوية كان يعتقد أن كل كلمة هي لقمة ضائعة. ولم يكن لينطق شيئا على حسابه، لذا أمسك لسانه لفترة. وأخيرا قال له: يا صاحبي، أنا في عجلة من أمري، وعندما أُحني ظهري يؤلمني. اصبر حتى يستيقظ سيدك، لن يطول الأمر، وعندئذ ستمتلئ بطنك، لو رأى ذلك مناسبا. وعندئذ جاء ذئب من الغابة، ومثله مثل أي ذئب كانت لديه شهية طيبة. سمعه الحمار الرمادي من بعيد، وطلب مساعدة الكلب. لكنه لم يتزحزح من مكانه ويخدمه على الفور. وقال: لم أعتد قط على القتال دون سبب هكذا لخاطر القتال. ابق حتى يستيقظ سيدك، واسمع لما يقول، لن يطول الأمر. لن يتعرض السيد الذئب لك بأي أذى. وإذا خفت من أنيابه أو مخالبه، فدُقَّ رأسه واكسر فكيه، واطرحه متمددا

على الأرض. لديك حدوات جديدة، ونعال مغلفة بالحديد. وبينما كان هذا الحوار الطيب يدور، انتهى أمر الرمادي المسكين.

العبرة

لا يمكن لأحد أن يعيش في سعادة مع آخرين، دون مساعدة الناس بعضهم البعض.

الثعلب والذئب

خرج الثعلب يبحث ذات ليلة، وقد علق القمر كل نوره في السماء. رأى صورته في بئر، لكنه لم يقدر أن يحدد ماهيتها. فصعد على الحجارة لينظر براحته، وفي النهاية خلص إلى أنها قطعة من الجبن. كان هناك دلو بالأسفل، وآخر بالأعلى، فقفز في ذلك الذي كان بالأعلى. وعندما *وصل إلى الماء، تبين له* كم يمتلك من مهارة قليلة في معرفة الجبن. تعلوب المسكين، معزولا عن كل معارفه، يجلس في دلو الحسرة، وحين ينبغي على الوغد أن يتحمل عبء الخطأ، كما يقال، فإنه يلوم نجوم حظه، رغم أني أعتقد بالأحرى أنه لعن القمر، والطقس الطيب كله. حسنا، هناك جلس، وتمنى دون شك في ذلك أن يخرج مقابل نصف ذيله. وكان أحيانا يهذي ويتحدث كالمجنون. وورد على ذهنه كل شيء يمكن أن يقال عن حاله: سعداء هؤلاء الذين لا يحبون

الجبن، يمكننا النزول عندما نشاء، لكن كي نعود من جديد، هذا هو الجزء الصعب. كل الحيل بلا فائدة، أملي الوحيد هو أن يأتي شخص في حكمتي وتنتابه نزوتي، وإلا سأموت. مر يومان، ورأى الحيوان المسكين أن أحدا لم يقترب من البئر، والآن قام الزمن العجوز بقطع جزء لا بأس به من وجه القمر -كما يفعل مع كل شيء- وأكله، وكلما قابله آخذ شريحة. رأى الثعلب المكار هذا، وأحزنه أن يرى ما خدعه يتلف ويفسد، مفكرا في بؤس حاله. وفي وقت متأخر من الليلة الثالثة، مر ذئب لم يستطع النوم لأنه شعر بحكة في فكيه، وتطلع في البئر: ماذا تكون أنت يا من هناك؟ فقال الثعلب: من فضلك انظر إلى ما لديّ هنا؛ إنه جبن لذيذ، مصنوع من لبن آيو[18]، وقام فاونس[19] بترتيبات صنعه، وكان من المفترض الاحتفاظ به من أجل السيدة جونو[20] بعد الولادة، لكنها أجهضت. لقد اخذت هذا الجانب، لكن ما زال هناك ما يكفي من الوليمة لاثنين أو ثلاثة. وقد فكرت فيك، وتمنيت لو أمكن أن أراك، وأن أُظهر لك كم أقدرك وأحبك وأعشقك. ذلك الدلو متروك من أجلك. وصدقه الذئب الأحمق، ودخل في الدلو، وسحب الثعلب المكار إلى أعلى من جديد.

18- آيو في الميثولوجيا اليونانية هي فتاة أحبها زيوس، فقام بتحويلها إلى بقرة صغيرة لكي يجّنبها غيرة زوجته هيرا.

19- في الأساطير الرومانية القديمة، كان فاونس هو الإله ذو القرنين للغابة والسهول والحقول.

20- أخت وزوجة جوبيتر كبير الآلهة في الأساطير الرومانية، وبصفتها زوجة لجوبيتر فقد كانت كبيرة الآلهة وأكثر الإلهات نفوذًا. وقد أدَّت الدور نفسه الذي أدتَّه الإلهة هيرا في الأساطير الإغريقية.

العبرة

لا تلم الحيوان الغبي، فأنت تصدق أشياء أقل احتمالا، وأغلب الرجال يعطون آذانهم بسهولة لما يتمنونه أو يخافونه.

النهاية

رسالة إلى ديون

مقدمة

رسالة إلى ديون، آخر منشورات ماندفيل، كانت في ظاهرها ردا على كتاب الأسقف بيركلي (ألسيفرون أو الفيلسوف الدقيق). في (ألسيفرون) كانت هناك سلسلة من المحاورات موجهة ضد «المفكرين التحرريين" في عمومهم، ديون هو *المضيف الرئيسي* و*ألسيفرون ولايسيكليس هما المفسران للمذاهب المرفوضة*. تتعرض المحاورة الثانية بالهجوم لقصيدة ماندفيل (أمثولة النحل)، حيث يشرح لايسيكليس بعض آراء ماندفيل ويراه ملحدا من الناحية اللاهوتية، وثوريا من الناحية السياسية، ومناديا بالمساواة من الناحية الاجتماعية. لكن في (رسالة إلى ديون) يزعم ماندفيل أن بيركلي يُحمله تبعة كل هذه الآراء، ويتهم بيركلي بالظلم والتحريف.

لم يحقق (ألسيفرون) ولا (رسالة إلى ديون) ضجة كبيرة. ولم تحظ (الرسالة) بطبعة ثانية، وهي الآن عمل بالغ الندرة. وقد تكون للرسالة أهمية قليلة لو انحصر دورها في سياق الجدال المتبادل بين بيركلي وماندفيل. كان هناك خطاة في ذهن بيركلي أكثر من ماندفيل، ولدى ماندفيل نقاد أكثر من بيركلي. ومع ذلك

فإن بيركلي يبدو أكثر من أي ناقد آخر قد أثار حفيظة ماندفيل وأصابه إصابة عميقة؛ ربما لأن بيركلي وحده استغل بشكل فعال أسلحته نفسها الخاصة بالسخرية والتهكم.

توصل بيركلي إلى أقرب فهم لأمثولة النحل عندما رفض صورة ماندفيل الكئيبة عن الطبيعة البشرية، وعندما واجه مديح ماندفيل للرفاهية بحجة مفادها أن المبالغ المنفقة على الرفاهيات ليست دعما أفضل للتوظيف من المبالغ المساوية المنفقة على الإحسان إلى الفقراء أو الحياة الأبقى التي ستنتج عن تجنب الرفاهية.

من بين الملاحظات المعاصرة القليلة عن (رسالة إلى ديون) كانت أهمها ملاحظة جون، لورد هيرفي. اتهم هيرفي كلا من بيركلي وماندفيل بعدم الإنصاف، لكنه وجه أغلب نقده لبيركلي. زعم هيرفي أن ألسيفرون أظهر نقاط ضعف الحجة في قالب المحاورة، ذلك بأنها تميل إما لعرض قضية الخصم بشكل قوي جدا حتى أنه يصبح من الصعب بعدها تفنيدها، أو على نحو ضعيف جدا حتى أنها قد لا تستحق الرد عليها. وجد الخطأ لدى بيركلي في إنكاره أن ماندفيل قد ذكر عددا كبيرا جدا من الحقائق الكريهة -ربما عن الطبيعة البشرية وأسلوبها في العمل داخل المجتمع- ولدى ماندفيل لكونه ذكرها على الملأ. ورأى -فيما أعتقد أنه على حق- أن ماندفيل بربطه الرذيلة بالازدهار، قد شوش عن عمد الفرق بين الرذيلة كنتيجة عرضية للازدهار، والرذيلة

كسبب للازدهار. قال هيرفي إن الرذيلة «هي ابنة الازدهار، لكنها ليست أمه؛ و... الرذائل التي تنتشر بين الأشخاص المزدهرين، ليست هي الوسيلة التي أصبحوا بها على ذلك الحال.»

في مقدمته لطبعته من كتاب ألسيفرون، يصف تي إي جيسوب *T. E. Jessop* بيان بيركلي لحجج (أمثولة النحل) بأنه ليس بيانا «غير منصف» ويقول: «لا يمكنني أن أرى أي سبب لتبرئة ساحة ماندفيل. فمحتوى وأسلوب كتابته يدعوان إلى الرد الحاد بدلا من الجدال. وبيركلي يقدم الاثنين، في أكثر محاوراته تألقا. وقد كتب ماندفيل ردا ضعيفا، هو رسالة إلى ديون.» أما إف بي كاي *F. B. Kaye* فيقول عن السجال بين بيركلي وماندفيل إن «رجالا مثل... بيركلي، الذين يمكن وصفهم بأصحاب العقليات الدينية... في كربهم يلقون بالمنطق إلى الرياح، وقد انتقده [أي ماندفيل] على أكثر الأسباب تناقضا.»

إن التقييم الموضوعي لنتاج الجدال بين بيركلي وماندفيل قد يؤدي إلى رأي في مكان ما بين هذين الرأيين اللذين قدمهما المحرران السابقان على التوالي، مع الاحترام المناسب لكاتبيهما. ومع ذلك، فإن رسالة إلى ديون ما زالت لها أهمية بشكل أساسي لأسباب أخرى. هناك أولا جدارتها الأدبية. والأهم من ذلك، أن هذه الرسالة تقدم بشكل أكثر توكيدا وحدة من غيرها عنصرين أساسيين في منظومة ماندفيل الفكرية: التأييد -الحقيقي أو

المدعى- للصرامة المطلقة في الأخلاق، والتشديد على دور الدولة، دور «السياسي الماهر»، في خلق مجتمع مزدهر من تعاملات جماعة من الأوغاد الأنانيين والخطاة. ستنحصر بقية هذه المقدمة في تعليقات على هذين الجانبين من مذهب ماندفيل. منذ نشر الطبعة الهامة التي قدمها إف بي كاي لأمثولة النحل، لا يمكن لأحد التعامل بجدية مع أفكار ماندفيل دون الاعتماد الشديد عليها، حتى عندما يكون هناك اختلاف مع تأويل كاي لوضع ماندفيل، كما هو الحال هنا.

كانت فرضية ماندفيل المركزية متمثلة في شعار «الرذائل الخاصة، والمنافع العامة» الذي حملته أمثولة النحل؛ أي أن تحقيق ازدهار دنيوي لديه في نفس الوقت كشرط مسبق وكنتيجة حتمية أنماط من السلوك البشري التي تفشل في تلبية متطلبات الأخلاقيات المسيحية، وبالتالي هي «رذائل». وقد حصر «كلمة الفضيلة على كل أداء يسعى عن طريقه الإنسان لنفع الآخرين، بالمخالفة لوازع الطبيعة، أو لقهر عواطفه من منطلق طموح عقلاني لأن يكون خيّرًا.» لو فهمنا أن عبارة «من منطلق طموح عقلاني لأن يكون خيّرًا" تعني من *منطلق "الخيرية"* بمعناها *اللاهوتي كمحبة واعية لله، فإن هذا التعريف للفضيلة* يتوافق بشكل دقيق مع الصرامة الأوغسطينية كما شرحها الكالفينيون من القرن السادس عشر فصاعدا، وفي الكنيسة الكاثوليكية على يد اللاهوتي البلجيكي مايكل بايوس، واللاهوتي الهولندي

كورنيليوس جانسينيوس، وأتباع الحركة الينسينية، وغيرهم. يؤكد ماندفيل أيضا على المذهب الصارم المتطرف القائل بأن أي شيء ليس بالفضيلة فهو رذيلة، وبالصيغة الأوغسطينية: ***aut caritas aut cupiditas*** (إما حب أو رغبة). لذلك ينبغي على الإنسان أن يختار ما بين الازدهار الدنيوي والفضيلة، ويصر ماندفيل -خاصة في رسالة إلى ديون- على أنه من جانبه فإن الاختيار دائما للفضيلة:

... مملكة *المسيح ليست* في *هذا العالم*، و... المذكور أخيرا هو الشيء ذاته الذي يجب على أي مسيحي حقيقي أن ينكره.

"رغم *أني* أوضحت الطريق إلى العظمة الدنيوية، إلا أني دون تردد فضلت الطريق المؤدي إلى الفضيلة.»

يقر كاي بأن تشدد ماندفيل «كان شفويا وسطحيا فقط، وأنه كان ليأسف عليه كثيرا لو كان العالم يدار وفقا للأخلاقيات الصارمة»، أن ماندفيل «عاطفيا» و»عمليا، إن لم يكن نظريا دائما» يختار الجانب «النفعي» من المعضلة بين الفضيلة والرخاء، وأن «فلسفة ماندفيل، في الحقيقة، تشكل كلا كاملا دون التشدد الظاهري". ومع *ذلك فإن كاي* يصر *على أن* تشدد ماندفيل كان صادقا، وأنه من الضروري بالتالي قبوله من أجل فهمه. يبدو لي، على العكس، أنه لو كان تشدد ماندفيل صادقا، فإن البنية الساخرة الكاملة لحججه، ونغمتها الاستفزازية، ومتعتها

الواضحة المثيرة للمرح، ستكون غير مفهومة، وسيكون هناك تعارض ظاهر بين أغراضه الساخرة وطرائقه ككاتب.

يرى كاي أن التشدد لم يكن من الأمور غير المعتادة كثيرا في حد ذاته كتبرير للشك بقدر ما يتعلق الأمر بصدقه وأصالته في حالة ماندفيل؛ كان التشدد «وجهة نظر معاصرة شائعة وفي نفس الوقت محترمة، وجهة نظر لم تنقرض بعد.» ولتوضيح أن التشدد كان «الوضع الأورثوذكسي المحترم بالنسبة لكل من الكاثوليك والبروتستانت» يستشهد كاي بشخصيات شهيرة متشددة، بالإضافة إلى بايل، مثل القديس أوغسطين ولوثر وكالفن ودانيال دايك *Daniel Dyke* (*مؤلف كتاب لغز خداع الذات*) وتوماس فولر *Thomas Fuller* ووليم لوو *William Law* ، وثلاثة أخلاقيين أوروبيين: جاك إسبريت *Esprit* وباسكال، وكلاهما من أتباع الحركة الينسينية، وجي إف برنار *J. F. Bernard*؛ وهو كالفيني فرنسي.

كان للتشدد المسيحي في زمن ماندفيل تاريخ طويل. منذ القديس أوغسطين -وهو ضمنهم- فصاعدا، خضع التشدد لأنماط كثيرة من التخفيف والاعتدال المذهبي حتى من جانب بعض من أكثر دعاته حماسة. وفي حالة ماندفيل، وكذلك في حالة كاي، هو حاضر فقط في شكله الأوضح والأصفى. ومع ذلك، احتاج كاي بأطروحته أن يبين أن مذهب ماندفيل كان «متفقا مع هيكل كبير

من النظرية المعاصرة»، حيث يقبله باعتباره «شفرة التشدد» وفي نفس الوقت يعامله كما لو كان متطابقا مع أي نظام أخلاقي ينادي بأي إجراء خاص بالانضباط الذاتي أو مرتبط بأي نوع من العقلية الدينية. كما يطابقه بالعقلانية في الأخلاق في حد ذاتها، كما لو أن أي أخلاقيات عقلانية فقط لأنها تنادي بإجراء انضباطي ما للعواطف عن طريق «العقل» فهي بطبيعة الحال «تشددية صارمة».

ربما كان ماندفيل يوجه سخريته في المقام الأول نحو رجال إنجليز معاصرين، وليس لرجال ماتوا منذ أجيال ولا للمشاركين في النقاشات اللاهوتية الأوروبية دون أن يكون لهم نظراء حقيقيون في إنجلترا، على الأقل منذ عودة الملكية. لو قبلنا بهذا، فإنه من بين الرجال الذين استشهد بهم كاي ليبين أرثوذكسية ومعاصرة التشدد فقط وليم لوو هو من يملك أي علاقة بالموضوع. لكن لوو كان «متحمسا» صريحا، وفي إنجلترا زمن ماندفيل كان هذا يعد هرطقة تماثل أن تكون متشككا صريحا. كانت الكالفينية في أصولها بلا جدال -وإن كانت هناك تحفظات على ذلك- نظاما متشددا. لكن قبيل زمن ماندفيل، كانت الكالفينية الصريحة شبه منقرضة في إنجلترا، وحتى في جنيف، وفي أسكتلندا، وفي هولندا، كان تشددها قد تخفف كثيرا بانتشار الأرمينيانية[21]

21- الأرمينيانية هي فرع من البروتستانتية على أساس الأفكار اللاهوتية للمصلح اللاهوتي الهولندي أرمينيوس وأنصاره التاريخيين المعروفين باسم الريمونسترانتيين.

وبمجموعة من إجراءات التوفيق اللاهوتي أو التوسط بين حياة الفضيلة وحياة هذا العالم الآثم. في أوروبا، كان أتباع الحركة الينسينية ما زالوا يدعون إلى تشدد قاس. لكن التشدد الينسيني لم يكن «أورثوذكسيا». ورغم أنه لم يكن متطرفا كتشدد ماندفيل، إلا أن السلطات الكاثوليكية أدانته مرارا وتكرارا باعتباره «تشددا مفرطا».

أن تأخذ تشدد ماندفيل على نحو جاد، بالتضييق الذي يُعرّف به «الفضيلة»، والاتساع الذي يُعرّف به «الرذيلة»، وفشله في تمييز أي أرض وسط بين «الفضيلة» و«الرذيلة» الصريحة، أو أي ظلال أو درجات لأي منهما، والإيجابية التي ينسب بها إلى اللعنة الأبدية كل من يبتعد بأي درجة عن «الفضيلة» كما يُعرّفها، فمعناه بالتالي أن تقبل ماندفيل كنصير حقيقي لتشدد بالغ التزمت وبالغ التجهم ليس فقط بالنسبة للمسار العادي للأنجليكان الأرثوذكس أو الكاثوليك في زمنه، بل حتى بالنسبة للقديس أوغسطين (أحيانا) وبالنسبة للكالفينيين وبالنسبة لليانسيين.

يضع كاي عن حق تأكيدا كبيرا على المدى الذي يدين به ماندفيل لبيير بايل *Pierre Bayle*. *ليس هنا مجال للتفصيل، لكن يمكن توضيح، كما أعتقد، أن ماندفيل كان مدينا أيضا بشكل كبير -سواء مباشرة أو بشكل غير مباشر عن طريق بايل-*

لليانسيني: بيير نيكول *Pierre Nicole* ، وأن تشدد ماندفيل كان تحريفا كبيرا لمنظومة نيكول، التي كان بايل مخلصا لها بشكل أساسي. أصر نيكول على أن «الفضيلة الصحيحة» بالمعنى المتشدد كانت ضرورية من أجل الخلاص، لكن في نفس الوقت أوضح استفادة المجتمع من السلوك الذي يُعد «آثما» لاهوتيًا. لكن كان السلوك «الآثم» للرجال الشرفاء، للمواطنين المتكيفين مع المعايير الأخلاقية السائدة لطبقتهم، وليس سلوك الأوغاد والأنذال، هو ما قبله نيكول على أنه مفيد اجتماعيا. في الناحية الأخرى لم يكتف ماندفيل بجمع المواطنين المحترمين مع الأوغاد والأنذال، بل إنه أكد على استفادة المجتمع من رذائل الأوغاد والأنذال أكثر من -وأفضل من- سلوكيات المواطنين الشرفاء والمحترمين. في الخلية المزدهرة، قبل انصلاحها، كانت هناك نوعيات:

... كالنصابين والطفيليين والقوادين واللاعبين

والنشالين والمزورين والدجالين والعرافين،

كان هؤلاء يُدعون بالمحتالين؛ لكن فيما عدا الاسم

كان الكادحون المجدون بنفس الوسم والرسم

تجسد الإصلاح الأخلاقي الذي جلب الخراب «للخلية المتذمرة» فقط في هجر الاحتيال وتبني معايير الرجل الشريف.

إن التـناقض ما بيـن طـرحه العـام وطرح نيكـول أو بايل يلقي

الضوء على الدور الذي لعبه تشدد ماندفيل المزعوم في تحقيق أغراضه الساخرة. لا يدعم هذا فقط وجهة نظر جميع معاصريه في أن تشدد ماندفيل كان زائفا، لكنه يدعم أيضا وجهة النظر القائلة بأنه لم يكن كارها لأن يُكتشف عدم صدقه بشكل عام، فقط بشرط ألا يخضع لإثبات واضح ولا لبس فيه. بجمعه «رذائل» المحتالين والرجال الشرفاء معا، استطاع ماندفيل دون مخاطرة كبيرة بالتعرض للعقوبات المدنية أو الكنسية أن يجعل التشدد من أي درجة يبدو سخيفا وبالتالي يوفر تسلية وفيرة لنفسه وللقراء ذوي العقليات المشابهة؛ ثم تمكن من التقدم ليقوض كل المنظومات الأخلاقية الهامة بالفعل في زمانه باستخدام معايير أكثر صرامة مما يمكنها تلبيتها. في مواجهة منظومة طبيعية المذهب وعاطفية، مثل منظومة شافتسبري، استطاع أن يجادل بأنها تستقر على مديح للطبيعة البشرية أكثر تفاؤلا من أن يكون حقيقيا. وفي مواجهة المنظومات الأخلاقية الأنجليكانية الحالية، إذا تمسكت بعناصر مذهب متشدد أقدم يمكنه أن يوجه لها تهمة النفاق، ولو كانوا متساهلين في ميولهم يمكنه الاعتراض بأنهم يدعون إلى «مسيحية سهلة» لا تتوافق مع الكتاب المقدس ومع التقاليد.

من الواضح أن ماندفيل لم يكن يحب رجال الدين، خاصةً المنافقين منهم، وما زال يوجد تشدد منبري كاف ليمده بهدف مناسب يصب عليه سخريته وعدد وجيه من القراء الذين

سيكتشفون هذه السخرية ويوافقون عليها. وكما قال سكوايرز ويسترن في رواية هنري فيلدينج (تاريخ توم جونز اللقيط) موجها حديثه للقس صابل عندما وبخه الأخير على إثم ما: «هل أنت على المنبر الآن؟ عندما تصعد عليه لا أهتم قط بما تقول، لكن لن أكون مطية لقس، ولن تعلمني أنت كيف أقوّم نفسي.» فقط لو قُرئت كهجاء ساخر للخطب المتشددة يمكن أن يكون هناك تقدير تام لبراعة «أمثولة البيرة الخفيفة" *التي* يعيد *ماندفيل إنتاجها، برضا واضح عن حرفيته، في رسالة إلى* ديون من *أمثولة النحل. هنا فرضية المتشدد الأساسية بأن الخطيئة* موجودة في *الشهوة* وفي *فعل إشباعها تنطبق على الشراب، حيث يعامَل* الظمأ وإطفاؤه كلاهما كإثم.

يشبه ماندفيل هنا، كما يفسره كاي، «يانسينيين الصالونات» الذين كانوا يتباهون بالتشدد العصري لمذهبهم لكنهم كانوا يصرون على الاستحالة العملية للارتقاء إليه في غيبة رحمة إلهية فعالة. في تفسيري، كان ماندفيل بلا شك «تحرريا» فكريا ومزاجيا في نفس الوقت لكنه يضع قناع التشدد حتى يتمكن في نفس الوقت من مهاجمة دعاة الأخلاقيات اللاهوتية الصارمة من خلفهم بينما يقوم بهجوم أمامي على منظومات الأخلاقيات الأقل صرامة والأكثر إنسانية. لم تكن هذه الظاهرة شائعة، لكنها لم تكن فريدة. قبل زمن ليس بالطويل، قام بوردالو ***Bourdaloue*** ، الواعظ اليسوعي العظيم من القرن السابع عشر، بلفت الانتباه إلى

التحرريين في فرنسا الذين كانوا يتنكرون في ثياب المتشددين لكي يعمقوا الانشقاقات وسط أعضاء الكنيسة: «كثيرا ما يحدث، وفي أكثر المحافل غرابة ووحشية، أن يقف الرجل الذي لا يؤمن بالله مدافعا عن قوة السماء التي لا تُقهر، ويصبح بكل مبالغة مادحا لأكثر الأخلاقيات تشددا.»

لرسالة إلى ديون أيضا علاقة بمرحلة أخرى من مذهب ماندفيل يساء تفسيرها من قبل الجميع تقريبا. هناك كثير من الباحثين، ومن ضمنهم اقتصاديون لا بد أنهم على معرفة بشكل أفضل، يعتبرون ماندفيل مبشرا رائدا بفردية (دعه يعمل) في المجال الاقتصادي وبالتالي سابقا على آدم سميث. ويتقبل كاي هذا التفسير دون جدال.

الدليل الذي تقدمه أمثولة النحل دعما لهذا التفسير ينحصر في هذه الحقائق: أكد ماندفيل على أهمية المصلحة الذاتية، والرغبات والطموحات الفردية، باعتبارها القوى الموجهة للنشاط الاقتصادي المفيد اجتماعيا. ورأى أن تقسيما أفضل للعمل بين المهن المختلفة سيحقق نتائج طيبة، على الأقل في إنجلترا، لو تُرك للتقرير الفردي أكثر مما لو نُظم أو أُرشد؛ فقد كان يرفض بعض أنماط التشريع الفرضي.

ومع ذلك، فإن كل هذا، رغم أنه من شروط مذهب عدم التدخل

(دعه يعمل)، إلا أنه كان أيضا متسقا مع المركنتيلية[22]، على الأقل من النوعية الإنجليزية. الأنصار اللاحقون لمذهب عدم التدخل لم يخترعوا «الإنسان الاقتصادي» الذي لا يسعى إلا وراء مصلحته الذاتية، لكنهم ورثوه من المركنتاليين ومن مذهب الخطيئة الأصلية. لقد كان التحليل الإنجليزي للعملية الاجتماعية بهذا المعني «فرديا» دائما، وبهذا المعنى كانت المركنتيلية والنفعية اللاهوتية واسعة الانتشار كلتاهما على الأقل فردية مثل اقتصاديات عدم التدخل اللاحقة. علاوة على ذلك، كان الإنجليز لفترة طويلة يشعرون بالغيرة من السلطة الحكومية، وفي ذروة المركنتيلية الإنجليزية أصروا على وضع حدود للتدخل الحكومي المناسب. لذلك ليس آمنًا أن ندعو أي أحد قبل آدم سميث كنصير لمذهب عدم التدخل فقط على أساس أنه كان ليُعفي بضع أنماط معينة للنشاط الاقتصادي من التدخل الحكومي. وسيكون من المضلل أيضا تطبيق الأفكار الحديثة على كُتاب القرن الثامن عشر فيما يتعلق بالخط الفاصل بين «التدخليين» وأنصار «الليبرالية» أو «مذهب عدم التدخل». مقارنةً بالشمولية الحديثة، أو حتى «بالتخطيط الاقتصادي المركزي» الحديث، أو «بالكينزية»، كانت المركنتيلية الإنجليزية في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن

22- المركنتيلية أو الاتجارية أو مذهب التجاريين يعرفها المعجم المنجد في اللغة العربية المعاصرة بأنها «نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي شيء آخر»، وهي مذهب سياسي-اقتصادي ساد في أوروبا فيما بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر.

عشر ليبرالية بشكل جوهري. فقط عند مقارنتها بآدم سميث، أو بمدارس الاقتصاد الكلاسيكية الإنجليزية أو «الليبرالية» الأوروبية في القرن التاسع عشر، ستبدو تدخلية.

يُعد آدم سميث داعية لمذهب عدم التدخل لأنه أرسى كمبدأ عام (يخضع في الممارسة لاستثناءات معينة عديدة وهامة إلى حد كبير) أن أنشطة الحكومة ينبغي قصرها على تطبيق العدالة أو الدفاع أو الأعمال العامة من النوعية غير المناسبة أصلا للمشاريع الخاصة. وقد وضع أساس مذهبه جزئيا على أرضية الحقوق الطبيعية، وجزئيا على الاعتقاد بأن هناك هارمونية سائدة طبيعية وتعمل ذاتيا، رسختها العناية الإلهية، بين المصلحة الفردية ومصلحة الجماعة، وجزئيا على أرضية فرضية أن الحكومة بشكل عام غير كفؤة، وقصيرة النظر، وغير ذكية.

لا شيء من هذا المذهب لدى ماندفيل؛ وهناك أدلة وفيرة في كتاباته على أن ماندفيل كان نصيرا مقتنعا للمركنتيلية السائدة في زمنه. أغلب المركنتيليين الإنجليز كانوا يرفضون بعض أو كل أنواع القوانين الفرضية على نفس الأساس الذي كان يرفض به ماندفيل بعضها، أي؛ وجود طرق أكثر مناسبة لتحقيق أهدافهم أو السمة الخاطئة لأهدافهم. فاعتراض ماندفيل على المدارس الخيرية على أساس أنها ستغير إلى الأسوأ إمدادات العمالة لمهن مختلفة كان قائما على اعتقاده أن إنجلترا، على عكس بعض البلاد

الأخرى، كان لديها بالفعل تجار وحرفيون مهرة أكثر مما كانت بحاجة إليه. على عكس آدم سميث، وضع ماندفيل تأكيدا كبيرا ومتكررا على أهمية دور الحكومة في إنتاج مجتمع قوي ومزدهر، من خلال التنظيم المفصل والمنهجي للنشاط الاقتصادي.

ثمة إساءة تأويل شائعة لماندفيل في هذا الجانب تتمثل في قراءة شعار «الرذائل الخاصة، والمنافع العامة» كشعار لمذهب عدم التدخل مثل شعار «دعه يعمل، دعه يمر»، بافتراض الهارمونية الطبيعية أو العفوية بين المصالح الفردية والمنفعة العامة. هذا الشعار كما ظهر على صفحات العنوان الداخلي لأمثولة النحل كان شعارا ناقصا. في نَصه، ذكر ماندفيل مرارا وتكرارا أنه عن طريق «الإدارة الماهرة للسياسي البارع» يمكن التعامل مع الرذائل الخاصة كي تخدم المنفعة العامة، مخلصا بهذه الطريقة معادلته من أي تضمين بعدم التدخل.

يتضح هذا بما يتجاوز أي شك عاقل عن طريق (رسالة إلى ديون). في كتاب (ألسيفرون) جعل بيركلي شخصية لايسيكليس تقول: «دعوا الطبيعة تعمل بطريقتها في حرية تامة، وستجدون كل ما سيحدث طيبا.» أخذ ماندفيل هذه العبارة على أنها موجهة ضده مباشرة، فأنكرها بقوة، واستشهد بالتأكيد الذي وضعه على «القوانين والحكومة» في أمثولة النحل. ويكرر من أمثولة النحل تفسيره بأنه عندما استخدم كعنوان فرعي شعار {الرذائل

الخاصة، والمنافع العامة}: «قصدت بها أن الرذائل الخاصة، عن طريق الإدارة البارعة لسياسي حاذق، قد تتحول إلى منافع عامة.» ولاحقا يشير إلى دور «الإدارة الماهرة» للـ «مشرع»، وإلى «حكمة السياسي، الذي تتحول بإدارته الماهرة الرذائل الخاصة لأسوأ الرجال إلى منفعة عامة». يقول: «إنهم لحمقى هؤلاء الذين يتخيلون أن صالح المجموع يتسق مع صالح كل فرد.»

ثمة عمل حديث يقدم دعما غير مقصود بطريقة غير مباشرة لإنكاري أن ماندفيل كان نصيرا لمذهب عدم التدخل. في هذا العمل نقرأ أن «أشهر نصير لما يدعوه هالفي *Halévy* بالهوية الطبيعية للمصالح هو برنارد ماندفيل» وأن «ما فعله ماندفيل من أجل مبدأ الهوية الطبيعية للمصالح فعله هلفتيوس[23] من أجل مبدأ هويتها المصطنعة»، أي أن «الفائدة الأساسية للحكومات تتجسد في قدرتها على إجبار البشر على العمل من أجل أفضل مصالحهم عندما يشعرون بعدم الميل لفعل هذا.» ومع ذلك يصدف أيضا أن هلفتيوس كداعية للتدخل الحكومي لم يكن فقط غير مفارق لماندفيل لكنه كان أيضا يردد أصداءه حتى بالنسبة للغة. كان هلفتيوس يقول إن الدوافع وراء المصلحة الشخصية

23- كلود أدريان هلڤتيوس (1715-1771) فيلسوف وموسوعى فرنسي، له نظرية تقول ان الناس كلهم يولدون بقدرات متساوية لكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين في القدرات، وأن كل نشاط عقلي صادر من الإحساس، وحتى الروح نفسها عبارة عن القدرة على الإحساس، ويعتقد أن الصالح الذاتي هو الدافع وراء تصرفات الناس.

المؤقتة كانت تكفي لتكوين مجتمع صالح، بشرط أن «تعامَل بمهارة من قِبل مشرع ماهر.»

هنا أيضا توجد رابطة وثيقة بين ماندفيل، وبايل، وأتباع الحركة الينسينية، خاصةً نيكول ودومات. تبنى جميعهم وجهة نظر هوبزية للطبيعة البشرية. جميعهم تبعوا هوبز في الاعتقاد بأن النظام الذي يفرضه القانون الوضعي وتطبقه الحكومة شيء أساسي إذا كان لمجتمع مزدهر وناجح أن ينشأ من جماعات الأفراد الساعية بقوة وراء مصالحها المراعية لذاتها. كانت أصالة ماندفيل في تظاهره بأنه لصالح الأخلاقيات الصحيحة كان يفضل ترك السعي الفردي وراء الرخاء حتى على حساب وقوع كارثة اجتماعية.

جاكوب ڤاينر

رسالة إلى ديون

بمناسبة كتابه

المسمى

ألسيفرون

أو

الفيلسوف الدقيق

المرسل: مؤلف أمثولة النحل

المقر: لندن

طباعة وتوزيع ج. روبرتس في وورويك لين.
M.DCC.XXXII.

سيدي،

لقد قرأت باهتمام كتابكم المكون من مجلدين: (ألسيفرون، أو الفيلسوف الدقيق). وبقدر ما يمكنني أن أحكم، فإن اللغة جيدة جدا، والبيان سليم، وأسلوب وطريقة الكتابة كلها مهذبة ومتعة في نفس الوقت: وكل هذا معا يدل على رجل ذي معرفة،

ومنطق وكفاءة جيدين. هدفي من إزعاجك بهذه الرسالة المملة المطبوعة، والتي ربما ستكون أطول مما كنت تأمله، هو إنقاذ الجمهور من الوقوع في خطأ فاحش، خطأ وقع فيه آلاف من الأشخاص العارفين وأصحاب النوايا الحسنة، وأنت نفسك كما أرى من بينهم، وقد قادكم إلى الوقوع في هذا الخطأ تقرير شائع يتعلق بأمثولة النحل كما لو كانت كتابا شريرا؛ كُتب لتشجيع الرذيلة، وإفساد الأمة. وأرجو منك ألا تتخيل أني أنتوي لومك، أنت أو أي رجل نزيه آخر مثلك، على إعطائكم المصداقية بتسرع لمثل هذا التقرير دون مزيد من البحث والدراسة. لقد قُدم كتاب أمثولة النحل أمام هيئة كبرى للمحلفين أكثر من مرة، وقلما كان هناك كتاب ألقيت ضده خطب وكُتبت ضده مقالات بحمية أو قسوة أشد. عندما يتعرض كتاب لهجوم عام كهذا، فإن أي رجل حكيم ليس لديه من خلو البال ما يجعله يهدر وقته، لديه سبب وجيه كي لا يقرأه. لكن بما أن محاورتك الثانية موجهة كلها تقريبا إلى ذلك الكتاب ومؤلفه، وليس هناك من موضع أعلنت فيه بكلمات مفصلة (على الأقل فيما أتذكر) أنك لم تقرأ قط أمثولة النحل، فمن الممكن أن يُوجه إليّ سؤال: لماذا ينبغي لي أن أعتبر من المفروغ منه أنك لم تقرأه قط، بينما كثير من قرائك قد يعتقدون في العكس؟ لو طُرح عليّ هذا السؤال، كنت سأجيب على الفور، بأني اخترت أن أكون مع ذلك الرأي؛ لأنه أفضل ما يمكنني أن أحمله نحو ديون من رأي وأكثرها ملاءمة. صدقني يا سيدي، ليس من

قبيل عدم الاحترام أن أدعوك باسم ديون مجردا؛ لكن لأني أفضل أن أعاملك بأقصى أدب وتهذيب: فهذا هو الاسم الذي أرى أنك شئت أن تتنكر تحته. ومحاولة تخمين اسم كاتب ما عندما يختار أن يتخفى هي -فيما أعتقد- وقاحة تعادل غالبا وقاحة أن تنزع قناع امرأة ضد رغبتها.

كل من يقرأ محاورتك الثانية لن يجد فيها أي اقتباسات حقيقية من كتابي، سواء مذكورة نصا أو مدروسة، لكن الآراء الشريرة والتأكيدات المنحطة المعروضة هناك حقا هي إما تلك التصورات والآراء التي استخدمها أعدائي بدايةً لتصويري كشخص كريه، وبعد ذلك كانت السمعة الشائعة قد علقت بي بالفعل، رغم أن أحدا لا يصادف شيئا منها في أي جزء من كتابي. وإلا فهي استدلالات حاقدة، وتعليقات حاسدة، قام آخرون قبلك دون وجه حق أو ضرورة باستنتاجها والبناء عليها مما قلته ببراءة. لا أجد أي خطأ فيك يا سيدي؛ لأنه حينما يصدق شخص أن هذه الاتهامات ضدي صحيحة، وهو على غير معرفة تامة بالكتاب الذي يشيرون إليه بأصابع الاتهام، فليس من المستحيل أنه قد ينبري مهاجما إياه دون أن يحمل أي خبث في قلبه، حتى لو كان أفضل عمل في العالم. قد يكون الرجل ساذجا ولكنه حسن النية؛ لكن لو كان رجلا ذا منطق وذكاء، وقد قرأ بالفعل أمثولة النحل، وقرأ بانتباه وتمعن كل جزء منها، ثم يكتب ضدها بنفس النبرة، كما فعل ديون في محاورته الثانية؛ لا بد أن أعترف أني سأكون في حيرة

من أمري، فأي عذر ألتمسه له؟

من المستحيل على رجل لديه أقل نزاهة، حينما يكتب في مصلحة الفضيلة والدين المسيحي، أن يرتكب مثل هذا التصرف غير الأخلاقي بأن يفتري على جاره، وأن يشوهه عن عمد بأشنع أسلوب. لو كان ديون قد قرأ أمثولة النحل، لم يكن ليسمح لفاجرين فوضويين مثل ألسيفرون ولايسيكليس بأن ينضويا تحت جناحيّ؛ بل كان ليبين لهما أن مبادئي تختلف عن مبادئهما، كما يختلف نور الشمس عن الظلام. عندما تبجحا قائلين بإطلاق الحرية للبشر، وتحدثا عن مقصدهما البغيض بتخليصهم من أغلال القوانين والحكومات، كان ليقتبس لهما بداية مقدمتي نفسها. مَثَل القوانين والحكومة للكيانات السياسية والمجتمعات المتحضرة، كمَثَل الأرواح الجوهرية والحياة نفسها في الأجساد الطبيعية للمخلوقات الحية. ومن المقدمة ذاتها كان ليبين لهذين المدافعين الصفيقين عن كل طرائق الشر، التشجيع القليل الذي كان من المحتمل أن يجداه من كتابي؛ وما إن يلوح أنهما يقصدان بالتحرر الفُجر، وامتيازا لارتكاب أفظع الجرائم مع الإفلات من العقاب، كان ليقتبس هذه الكلمات: عندما أؤكد أن الرذائل ملازمة للمجتمعات العظيمة والقوية، وأنه من المستحيل أن توجد ثروتها وعظمتها بدونها، فأنا لا أقول إن أعضاء بأعينهم في هذه المجتمعات من المذنبين بأي من هذه الرذائل لا ينبغي أن يوبَخوا باستمرار، أو ألا يعاقَبوا عنها إذا استفحلت وبلغت حد الجرائم.

كان ليعزز هذا بفقرات عديدة في الكتاب نفسه، وألا ينسى ما قلته في صفحة (كذا). أنا أضع كمبدأ أول أنه في كل المجتمعات، الكبيرة أو الصغيرة، من واجب كل عضو فيها أن يكون صالحا، وأنه لا بد من تشجيع الفضيلة، ورفض الرذيلة، وإطاعة القوانين، ومعاقبة المخالفين. فقط لو كان قد قرأ الطبعة الأولى، وهي كتاب صغير في اثنتي عشر صفحة، لما أمكن لرجل في فضيلة ونزاهة ديون أن يتجاهل الاهتمام الذي أوليته في خمسين موضعا، ولا التحذيرات العديدة التي أعطيتها، خشية أن أتسبب في إساءة أو أن يساء فهمي: على العكس، كان ليستخدمها كي يحرر صديقيه من الأوهام ويمنع مخاوفهما غير القائمة على أساس وتلميحاتهما الخرقاء. لو كان ديون قد قرأ ما كتبته عن حريق لندن، لم يكن من الممكن لشيء غير تهذيبه أن يمنعه من الانفجار في ضحكة مدوية على الملاحظة الحكيمة التي أبداها كريتو المثقف، حيث يشير إلى احتمالية أن الحرائق وأعمال الفوضى الأخيرة أخذت إشارة البدء في انطلاق خستها من أمثولة النحل.

لا يمكنني القول بأنه لا توجد مقاطع عديدة في تلك المحاورة قد تقنع الـمرء بأنك قمت بالغـوص عميقا في أمثولة النحل، لكن بعد ذلك مع افـتراض أنك غطـست فيها فقط، وأنك كتبت ضدها كما فعلت؛ فسيلحق هذا أذى بالـغا بشخصيتك، شخصية الرجل الشريف، حتى أنه لا صبر لديّ لمجـادلة مثل هذا الافتـراض غير الطيب. أعلم جيدا جدا يا سيدي أني أتوجه بحـديثي إلى رجل

عديد المواهب، وأستاذ في المنطق، وميتافيزيقي أريب، لا يقبل بالرضوخ للسفسطة أو الادعاءات الزائفة؛ لذا أرجو منك أن تتأمل بعناية ما قلته حتى الآن، وستقتنع أن عدم تصديقي بأنك قد قرأت أمثولة النحل لا يمكن أن ينطلق إلا مما لديّ من رأي طيب عن قيمتك وصراحتك، والذي آمل ألا يجدّ أي طارئ أبدا يجعلني أغيره. لست الأول يا سيدي، من بين الخمسمائة الذين انبروا بقسوة شديدة مهاجمين أمثولة النحل دون أن يقرأوها قط. لقد كنت في الكنيسة أنا نفسي عندما كان كاهن محترم يخطب ضد الكتاب المقصود بحماسة شديدة، ذلك الرجل الذي أقر أنه لم يرَ الكتاب قط، وهناك شهود أحياء الآن، أشخاص لهم سمعة لا تقبل الشك، سمعوه كما سمعته.

في النهاية، أنت لم تقدم شيئا في المحاورة الثانية يتعلق بي، وهو ما لا يمكن إثبات أنه قيل أو جرى التلميح به مرات ومرات في منشورات ومواعظ وجرائد من كل الأنواع والأحزاب. يمكنني مساعدتك بسبب آخر جيد جدا يفسر لماذا قد لا يرتاب امرأ ذو عقل ومنطق في ذلك التقرير المغرض الذي انتشر عن أمثولة النحل، ويكتب ضدها بكلمات عامة، رغم أنه لم يقرأها. يعرف الجميع أي مشقة يتحملها حزبنا من الكُتاب في معارضة أحدهم الآخر، وأن هناك أشياء قليلة لو مدحها أحدهم لا يدينها الآخر. وبالتالي لو وجدنا (لندن جورنال) يلقي بهجوم ما على أمثولة النحل ذات يوم، وجريدة (كرافتسمان) تلقي بآخر، فهذه علامة

أكيدة بأن السمعة السيئة للكتاب لا بد أن تترسخ جيدا ولا ينتاب أحدا شك فيها. إذًا لماذا لا يكتب مؤلف عنه دون أن يحمل نفسه مشقة قراءته؟ سيكون من الصعب ألا يجرؤ رجل على تأكيد أن الجو حار في جزر الإنديز الشرقية دون أن يقوم برحلة متعبة إلى هناك ويحس بهذا الجو. لذلك كلما تأملت يا سيدي في محاورتك الثانية، والأسلوب الذي تعاملني به فيها، كلما ازددت اقتناعا أنك لم تقرأ قط الكتاب الذي أتحدث عنه، أقصد لم تقرأه كاملا، أو على الأقل لم تقرأه بانتباه. لو أن ديون اطلع بنفسه على أمثولة النحل، كما لعله قد فعل، فلا بد أنه قد التقى بتبرئتي منها بشكل أو بآخر. في البداية خرجت أمثولة النحل في جريدة، ثم نشرتها في كتيب يباع بستة بنسات، ومعه كلمات البلاغ المقدم من هيئة المحلفين العليا وخطاب جارح بذيء إلى اللورد ك. ظهر بعده مباشرة؛ وكان كلاهما -التقديم والخطاب- *مناسبة لكتابتي تلك التبرئة. السبب الذي ذكرته لفعل هذا* هو محاولة جعل القارئ على علم تام بسمات القضية بين خصومي وبيني، ولأني اعتقدت أنه من المطلوب كي يحكم على دفاعي أن يعرف حكاية الدعوى بأكملها، وكل الاتهامات الموجهة ضدي بشكل عام. وحرصت على طباعة هذا بطريقة مميزة، من ناحية الحرف والشكل، لتكون في مصلحة المشترين بحيث يمكنهم طيها بشكل مريح، وأن تبدو كقطعة واحدة مع الطبعة الأخيرة وقتذاك، والتي كانت الثانية. ومنذ ذلك الوقت جرت إضافة المحتويات الكاملة لهذه المطوية

إلى الكتاب، وموجودة في نهاية الطبعة الثالثة والرابعة والخامسة وكذلك هذه الطبعة الأخيرة. لو كان ديون قد رأى ووافق على هذه التبرئة، لما كتب ضدي على الإطلاق، ولو اعتقد أن إجاباتي ليست مرضية، وأني لم أبرئ ساحتي من الإساءات التي أُلقيت عليّ، فقد كان من عدم اللطف، إن لم يكن تجاهلا كبيرا للجمهور، ألا يلاحظ ذلك، وأن يبين قصور دفاعي، وهو ما يتضح من كتاباته نفسها أن عددا كبيرا من أفراد المجتمع الراقي قد أذعنوا إليه، أو لم يعتقدوه ضروريا.

اسمح لي إذًا يا سيدي، من أجلك أنت، أن أتعامل معك وكأنك لم تقرأ قط أمثولة النحل، وفي المقابل أعدك بألا أستغل ذلك في الإساءة إليك. على العكس، أتقبل الأمر كشيء مسلم به أنه من السمت السيء الذي سمعته عن الكتاب من كل اتجاه، كان لديك السبب الكافي كي تكتب ضده، كما فعلت، دون أي بحث آخر. بالتوصل إلى تسوية هذا الأمر، سأحاول أن أوضح لك إمكانية أن كتابا ما قد يغدو عرضة لهذه المذمة العامة دون أن يستحقها. فأي كاتب يتجرأ على فضح الرذيلة، وترف الزمن الذي يعيش فيه، وينزع الأقنعة عن الرجال الماكرين، ويتفحص المظاهر الكاذبة التي تُضفى على الفضيلة، ويكشف حيوات هؤلاء الذين

يتظاهرون بأنهم سادة مهذبون ويعيشون كعبيد باخاناليين[24]، أقول: كاتب يجرؤ على فعل ذلك في أمة عظيمة وافرة الثراء ومزدهرة، لا يمكن أن يفشل أبدا في أن يجتذب نحوه عددا هائلا من الأعداء. قليل من الرجال يمكنهم أن يتحملوا بصبر رؤية هذه الأشياء تتكشف، وهي في مجال اهتمامهم، ويتحملون مشقة إخفائها. أما بالنسبة لهيئات المحلفين العليا، فما يهتمون به هو شهادة الآخرين، ولا يحكمون على الكتب من قراءاتهم أنفسهم، وقد عُرضت عليهم كتب كثيرة، لم يروا واحدا منها من قبل، أو على الأقل أغلبهم. ومع ذلك متى ما عُرض ناشر أمام هيئة محلفين عليا، يُعد هذا بمثابة إدانة عامة للكاتب، وعارا ليس من السهل محوه.

أما كُتاب الأخبار الذين يكمن اهتمامهم الأساسي في ملء جرائدهم وإثارة اهتمام قرائهم، فلا ينسون أبدا أي فضيحة يمكن نشرها دون عقاب. وبهذا فإن أي كتاب أُلحقت به هذه المذلة ذات مرة، يتحول في غضون بضعة أيام إلى شيء كريه، وخلال أقل من أسبوعين يغدو سيء السمعة في جميع أرجاء المملكة دون أي نقصان. هؤلاء *الكُتاب الهجاؤون* من بينهم *رجال أحزاب*، ويكتبون *إما من أجل المحاكم والوزراء أو ضدهم*، *ولديهم اهتمام*

24- الباخاناليا: مهرجان على شرف باخوس يماثل احتفال اليونيسيا عند اليونان. ابتدأ بشعائر دينية تقوم بها الباخيات، على مراحل في مدار السنة. تطورت الشعائر المعربدة إلى احتفالات ماجنة سكيرة، وقد قام بإلغائه مجلس الشيوخ الروماني في 189 قبل الميلاد.

بما يخدم *أغراضهم أكبر من اهتمامهم بالحقيقة أو الصدق*. وبما أنهم يعتاشون على الأخطاء البذيئة، ويبقون أحياء بروح الفتنة والخلاف، فليس من شأنهم أن يتداركوا الأخطاء في الرأي، بل بالأحرى أن يزيدوها عندما تخدم هدفهم. وهم يعلمون أن أيا كان من يتملقونهم بالآلاف وينالون المصداقية بينهم، لا يجب أن يعارضوهم؛ وهو السبب في أنه كيفما كان كُتاب الأحزاب هؤلاء مختلفين أحدهم عن الآخر في المبادئ والعواطف، فإنهم لن يختلفوا أبدا في هجائهم أو تهليلهم عندما يتلمسون هذه الآراء التي يجري تلقيها بشكل عام.

لو تأملت يا سيدي فيما قلته في الفقرتين الأخيرتين، سترى بسهولة إمكانية أن تنال الكتب سمعة سيئة وصيتا رديئا دون أن تستحق هذا. والشيء التالي الذي سأسعى لإثباته لك أن هذا كان هو الحال مع أمثولة النحل، وأن العداوات التي ظهرت ضدها كانت في الأصل بسبب قضية أخرى، غير تلك التي زعم خصومي أنها القضية الحقيقية. من أجل هذا، سأضطر إلى أخذ اقتباسات عديدة من الكتاب ذاته، وتكرار أشياء كثيرة، قلتها بالفعل في التبرئة التي أشرت إليها من قبل. لكن بما أني أنتوي هذا فقط من أجلك وهؤلاء الذين حكموا على الكتاب من التقرير الشائع، ولم يطالعوا قط الجزء الأول أو الثاني منه، ستكون هذه الاقتباسات جديدة بالنسبة لك مثلها مثل أي جزء آخر من رسالتي.

لست جاهلا بالإجحاف والضرر الحقيقي اللذين يلحقهما الكُتاب بأنفسهم عندما يقومون باقتباسات طويلة. فهم يقاطعون بذلك المعنى، وكثيرا ما يقطعون خيط الحديث، وكثيرا ما ينسى القارئ الموضوع الرئيسي عندما يصل إلى نهاية الاقتباس المطول، وغالبا ما ينسى الشيء نفسه الذي أتى هذا الاقتباس ذاته كي يثبته. لهذا السبب نرى أن الكُتاب من ذوي الألباب يتجنبونها قدر ما يستطيعون، أو أنهم حينما لا يستطيعون الاستغناء عنها، فإنهم بدلا من إقحامها في المتن الرئيسي لأعمالهم، يجعلون لها مكانا في الملاحظات أو الإشارات التي يرجعون إليها، أو يضعون ملحقا حيث يمكن وضع كثير من هذه الاقتباسات معا، ولا تقع العين عليها أبدا إلا بالاختيار، وعندما يكون القارئ في وقت فراغه. من المؤكد أن هذا الفصل لكل المواد غير الجوهرية عن الجسد الأساسي للكتاب، النص نفسه، أقل إزعاجا لأغلب القراء من الطريقة الأخرى التي أشرت إليها في البداية؛ لكن تلازمه هذه النتيجة السيئة، والتي ليست أقل طرق الكتابة جاذبية، أي أن كثيرا من الأشياء الطريفة وغالبا الأكثر قيمة، والتي لها أعلى أهمية بالنسبة للكاتب كي تُعرف، يجري إهمالها ولا يُنظر فيها قط، فقط لأنها وُضعت في هوامش أو ملحقات. في حالتي ستجد يا سيدي أن الاقتباسات المطولة، وبعضها يصل لصفحات عديدة، التي أجدني مضطرا لإزعاجك بها، هي أكثر أهمية لتبرئة كتابي من كل ما يمكن أن يقال إلى جانبها. لأنها لن تثبت لك فقط

أنه جرى تحريف كلامي بشكل مخزٍ، لكنها كذلك تعطيك رؤية واضحة للسبب الحقيقي وراء الغضب والكراهية والتشدد من جانب أعدائي، الذين قاموا أولا بإضفاء سمعة سيئة على كتابي، وكانوا هم المؤلفين المثابرين للتقارير الزائفة التي فُرضت عليك وعلى كثير من الرجال الصالحين غيرك، لمصيبتي العظيمة! ستعذرني إذًا يا سيدي لو أني، بمراعاة مصلحتي الشخصية في دفاع عادل بدلا من مراعاة متعتك في قراءته، قمت بوضع أقوى أدلتي مباشرة في طريقك، بحيث أنك لو صنعت لي معروفا بمطالعة هذه الرسالة، سيكون من المستحيل بالنسبة لك أن تظل جاهلا بعد ذلك ببراءة نواياي، وبالظلم الذي أُلحق بي.

في بيان الإحالة إلى هيئة المحلفين العليا ثمة تلميح بوجود إطراءات في حق المواخير، وهو ما يمكنني أن أؤكد لك يا سيدي أنه ليس صحيحا. ولعل ما فتح بابا لهذه التهمة هو أطروحة سياسية تتعلق بأفضل الطرق لحماية النساء ذوات الشرف والفضيلة ووقايتهن من إهانات الرجال المتهتكين، الذين تكون عواطفهم غالبا غير محكومة. في هذا الأمر هناك معضلة بين شرَّين، من المتعذر تجنب كليهما، لذلك تعاملت مع الأمر بأقصى حيطة، وبدأت هكذا: أنا أبعد ما أكون عن تشجيع الرذيلة، وأظن أن هناك بهجة لا توصف بالنسبة لأي دولة لو أمكن نفي خطيئة النجاسة بشكل كلي منها؛ لكني أخشى أن هذا مستحيل. قدمت أسبابي حول لماذا أعتقد في هذا، وتحدثت أحيانا عن بيوت

الموسيقى في أمستردام، وقدمت وصفا قصيرا لها، لا يمكن لأي شيء أن يكون أقل ضررا منه. من أجل إثبات هذا لهؤلاء الذين اشتروا أمثولة النحل أو لمن احتازوها، سيكون كافيا أن نحتكم إلى الكتاب ونعود إليه. لكن بما أن سببا أساسيا لطباعتي هذه الرسالة هو إظهار براءتي لك ولهؤلاء الذين لم يقرأوا الكتاب ولم يهتموا بشرائه، فمن الضروري تسجيل كل شيء. سترى يا سيدي أن هدفي هو توضيح أن بيوت الموسيقى تلك مرفوضة، وفي نفس الوقت مسموح بها.

بادئ ذي بدء، هذه البيوت التي أتحدث عنها من غير المسموح بوجودها إلا في أقذر وأسوأ أجزاء المدينة، حيث يسكن ويتردد بشكل أساسي البحارة والغرباء من غير ذوي الصيت والمكانة. والشارع الذي تقوم فيه أغلبها يُعد شارعا مفضوحا، ويمتد العار إلى كامل الحي المحيط به. ثانيا، هي فقط أماكن للالتقاء والمساومة فيها، لترتيب مواعيد، من أجل تطوير مقابلات ذات سرية أكبر، ولا يوجد أي شكل من العهر على الإطلاق يمكن القيام به فيها؛ وهو النظام الذي يراعى بصرامة، حتى أنه باستثناء السلوكيات السيئة وضوضاء الصحبة التي تتردد عليها، لن تقابلك أي بذاءة أكبر. وبشكل عام هناك فسق أقل بها مما يمكننا أن نراه في أي مسرح. ثالثا، فإن بائعات الهوى اللاتي يأتين إلى هذه المقايضات المسائية، هن دائما من حثالة الناس، وبشكل عام هن كذلك؛ حيث يحملن في النهار الفاكهة وغيرها من

المأكولات ويتجولن بها في عربات اليد. والثياب التي يظهرن بها ليلا بالفعل، تختلف كثيرا عن ثيابهن المعتادة، لكنها في العادة بهيجة على نحو سخيف، حتى أنها تبدو أشبه بأردية رومانية لممثلات جوالات عن كونها ملابس سيدات مهذبات. لو أضفت إلى هذا الارتباك والأيادي الخشنة والتربية الفظة للفتيات اللاتي يرتدينها، فليس هناك من سبب كبير للخوف من أن يقمن بإغواء عدد كبير من أفضل نوعيات الناس.

الموسيقى في معابد فينوس تلك تؤدى بواسطة آلات الأرغن، ليس من منطلق الاحترام للمعبودة التي يصلون لها هناك، لكن توفيرا واقتصادا من مالكيها الذين يتركز همهم في الحصول على أكبر قدر من الصوت مقابل أقل ما يمكنهم دفعه من مال، وسياسة الحكومة التي تبذل أقل ما يمكنها من مجهودات في أن تشجع تكاثر الزمَّارين والحكَّاكين. كل الرجال الذين يحيون حياة البحر، خاصة الهولنديون، يميلون كثيرا -مثلهم مثل العنصر الذي ينتمون إليه- إلى الضجة والصخب، وضوضاء نصف دستة منهم، عندما يقولون على أنفسهم أنهم في حالة مرح، كفيلة بإغراق ضعف عددهم من آلات الفلوت أو الكمان؛ بينما بزوج واحد من الأرغن يمكنهم أن يجعلوا البيت بأكمله يجلجل، ولا يتكلفون شيئا آخر أكثر من الإبقاء على موسيقي واحد متواضع، وهو ما يمكن ألا يكلفهم إلا القليل. وعلى الرغم من ذلك هناك قواعد جيدة ونظام صارم تجري مراعاته في أسواق الحب تلك،

فالشخاوت[25] وضباطه دائما مشاكسون ومولعون بالغرامات، ولدى أقل شكوى يطردون المالكين البؤساء من أماكنهم. وهذه السياسة لها فائدتان عظيمتان: أولا، أنها تتيح الفرصة لحزمة من الضباط، الذين يستخدمهم قضاة التحقيق في مناسبات عديدة والذين لا يمكنهم الاستغناء عنهم، كي ينتزعوا رزقا من المكاسب المفرطة المستحقة من أسوأ المهن، وفي نفس الوقت يعاقبون هؤلاء المتهتكين الحتميين، من المومسات والقوادين، هؤلاء الذين رغم أنهم يمقتونهم إلا أنهم لا يرغبون في تدميرهم بالكلية. ثانيا، لاعتبارات عديدة قد يكون من الخطر إطلاع الجموع على ذلك السر؛ بأن هذه البيوت والتجارة التي تجري فيها يتم التغاضي عنها. لذلك، وبهذه الطريقة التي تبدو غير قابلة للوم، يحافظ قضاة التحقيق الحذرون على صورتهم داخل الرأي الطيب لدى النوعية الأضعف من الناس، الذين يتخيلون أن الحكومة تسعى دوما، رغم عدم قدرتها، لحظر ما تبيحه بالفعل. بينما لو كان لديهم نية لطردهم، فإن سلطتهم في إنفاذ العدالة ذات سيادة كبيرة وواسعة، وهم يعرفون جيدا كيف ينفذونها حتى أنه خلال أسبوع واحد، بل ليلة واحدة، يمكنهم أن يحزموهم جميعا في ربطة واحدة ويبعدوهم.

25- Schout مسؤول محلي كان يتم تعيينه في المناطق الناطقة بالهولندية للقيام بمهام إدارية وإنفاذ القانون والمهام القضائية. ألغي المنصب مع إدخال إصلاحات إدارية خلال فترة نابليون.

أحتكم إليك يا سيدي لترى إن كانت هذه العلاقة ليست هي الأليق بأن تثير لدى الرجال (حتى الشهوانيين منهم، ومهما كان ذوقهم) اشمئزازا ونفورا من النساء في هذه البيوت، أكثر مما تثير أي رغبة مجرمة. أنا آسف لأن تتصور هيئة المحلفين العليا، كما قالوا، أني نشرت هذا بقصد إفساد الأمة، دون اعتبار في المقام الأول لأنه لا توجد جملة ولا مقطع لفظي يمكن أن يجرحا أطهر الآذان، أو يلوثا خيال أكثرها خبثا، أو -في المقام الثاني- أن الأمر المشكو منه موجه بشكل واضح لقضاة التحقيق والسياسيين، أو على الأقل للجزء الأكثر جدية وتفكيرا من الجنس البشري؛ بينما فكرة أن تتسبب القراءة في فساد عام للسلوكيات، فيما يتعلق بالدعارة، لا يمكن فهمها إلا من خلال البذاءات -التي من السهل شراؤها- وكل طريقة يجري تكييفها لتلائم أذواق وطاقات الجموع الغافلة والشباب عديم الخبرة من الجنسين. لكن الأمر الذي ثارت الضجة الغاضبة ضده لم يكن مقصودا به قط أي من هاتين الطبقتين من الناس، وهذا واضح ضمنا على كل حال. فبداية النثر فلسفية تماما، ومفهومة بالكاد لأي شخص ليس معتادا على مسائل التأمل والتفكر، وعنوانه الحالي أبعد من أن يكون خادعا أو مغريا حتى أنه دون قراءة الكتاب نفسه لا يعرف أي شخص ماذا يصنع به، وفي الوقت نفسه فالسعر خمسة شلنات. من كل هذا يتضح بشدة أنه لو كان الكتاب يحتوي أي معتقدات خطيرة، فأنا لم أكن حريصا للغاية على بعثرتها بين

الناس. لم أقل كلمة لإرضائهم أو لجذبهم، وأكبر تملق صنعته نحوهم كان التزامي بشعار (ابتعد عن الغوغاء)[26]. لكن بما أن لا شيء (كما أقول في ص كذا) سيثبت بوضوح كذب تصوراتي أكثر من أن يتفق عموم الناس في الرأي معها، فأنا لا أتوقع استحسان الجماهير. أنا لا أكتب للكثيرين، ولا أسعى وراء أي من المهنئين، لكن وسط القلة التي يمكنها التفكير بشكل مجرد، ويتسامون بعقولهم فوق السوقة والغوغاء. ولم أقم باستغلال هذا أي استغلال سيء، وحافظت دوما على تلك المراعاة الرقيقة للجمهور، حتى أني عندما كنت أقدم أي آراء غير شائعة، كنت أستخدم كل ما يمكن تخيله من احتياطات حتى لا تتسبب في أي قدر من الأذى للعقول الضعيفة التي قد تصادف الكتاب عرضا. وعندما اعترفت (ص كذا) برأيي أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يرتفع ليغدو مملكة غنية وقوية، أو أن يظل بعد ارتفاعه إلى هذه الدرجة على ثرائه وقوته لأي فترة محترمة من الزمان، دون رذائل الإنسان؛ كنت قد أقمت فرضيتي على ما هو صحيح: بأني لم أقل أو أتخيل قط أنه من غير المستطاع للإنسان أن يكون فضيلا في مملكة ثرية وقوية كما يمكن أن يكون في أكثر الدول إثارة للشفقة. لاحظ يا سيدي أني عندما أقول إن المجتمعات لا يمكنها أن ترتفع إلى الثروة والقوة وتصعد إلى قمة المجد الدنيوي بدون الرذائل، فأنا لا أعتقد أني بقولي هذا أدعو البشر إلى أن يكونوا أشرارا، أكثر

26- باللاتينية في الأصل: Apage Vulgus

مما أدعوهم إلى أن يكونوا مشاكسين أو طامعين عندما أؤكد أن مهنة المحاماة لم يكن من الممكن أن تظل بهذه الكثرة والأبهة لو لم تكن هناك وفرة من الأشخاص مفرطي الأنانية والميالين للتقاضي. ثمة تحذير آخر من نفس الطبيعة قدمته بالفعل قرب نهاية المقدمة، بسبب شر ملموس، ملازم لرخاء وهناءة لندن. وهذه هي كلماتي:

أعتقد أن هناك أشخاصا قلائل في لندن من هؤلاء الذين قلَّما يضطرون للسير على أقدامهم، لكنهم يتمنون لو كانت الشوارع أنظف كثيرا مما هي عليه بشكل عام، حيث لا يهتمون بشيء غير ملابسهم وراحتهم الخاصة، لكن ما إن يتبادر إلى أذهانهم أن ما يسيء إليهم ويزعجهم هو نتاج الكثرة وحركة المرور الكبيرة والثراء المميزين لهذه المدينة الجبارة، لو كان لديهم أي اهتمام بصالحها ورخائها، فلن يتمنوا أبدا أن يروا شوارعها أقل قذارة. لأننا لو وضعنا في اعتبارنا المواد من كافة الأنواع التي لا بد أن تغذي هذا العدد اللانهائي من المهن والحرف اليدوية، وهي تتزايد دائما؛ والكمية الهائلة من الأطعمة والمشروبات والوقود المستهلكين يوميا فيها، والمخلفات والفضلات التي لا بد وأن تنتج عنها؛ وحشود الخيول والبهائم الأخرى التي تدب في الشوارع دومًا، والعربات والمركبات والمقطورات

الأثقل التي تُبلي وتكسر على الدوام رصفها، وفوق كل ذلك الجموع التي لا حصر لها من الناس التي تتدافع باستمرار وتسحق كل جزء منها. أقول لو وضعنا في اعتبارنا كل هذه الأشياء، سنجد أن كل لحظة لا بد وأن تنتج قذارة جديدة؛ وإذا وضعنا في اعتبارنا كم تبعد الشوارع الكبرى كثيرا عن ضفة النهر، ومقدار التكلفة والعناية اللذين يجب إيلائهما من أجل إزالة الوسخ بنفس السرعة التي يجري إنتاجه بها تقريبا؛ فمن المستحيل أن تكون لندن أنظف قبل أن تكون أقل ازدهارا. والآن هل يمكنني أن أتساءل إن كان هناك مواطن صالح، في ضوء ما قيل للتوّ، قد لا يؤكد أن الشوارع القذرة شر لا بد منه وغير قابل للانفصال عن هناءة لندن، دون أن تمثل أقل عائق أمام تنظيف الأحذية، أو كنس الشوارع، وبالتالي دون أي تحامل سواء تجاه ماسحي الأحذية أو الزبالين.

لكن لو طُـرح علـيّ سؤال، دون أي اعتبـار لمصلحة وسـعادة الـمدينة، عن أي مكان أعتقد أنه الأجمل للـسير فيه؟ لا يمكـن لأحـد أن يـشك، قبل شوارع لندن كريهة الرائحة، سأفـكر في حـديقة عبقـة، أو بسـتان ظليل فـي الريـف. على نـفس المنوال، لو وضعـنا جانبا كل العـظمة الدنيـوية والمجد الزائـف، ينـبغي أن أُسـأل أين أظن أنه

يمكن للبشر على أكبر احتمال أن يستمتعوا بالسعادة الحقة، وعندئذ سأفضل مجتمعا صغيرا مسالما، فيه ينبغي أن يكون الناس غير محسودين ولا مبجلين على نحو زائد من جيرانهم، ويكونون راضين بالعيش على المنتجات الطبيعية للبقعة التي يسكنونها، أفضل هذا المجتمع عن حشد هائل من الناس يتنامون في الثروة والقوة، ودائما ما يغزون الآخرين بجيوشهم في الخارج، ويفسدون أنفسهم بسبل الترفيه الأجنبية في الوطن.

أقر يا سيدي بأن هذا رأيي، وأني قد سعيت لإثبات أن الرفاهية رغم اعتمادها على رذائل الإنسان إلا أنها ضرورية بشكل مطلق لجعل أي أمة عظيمة مهابة ومترفة ومتحضرة في نفس الوقت. لكن قبل أن تصدر أي حكم عليّ من أجل هذا، اسمح لي أن ألفت انتباهك إلى شيئين، أرى أنهما صحيحان على نحو لا يمكن إنكاره. الأول أن مملكة المسيح ليست من هذا العالم، والمذكور أخيرا هو الشيء ذاته الذي يجب على أي مسيحي حقيقي أن ينكره. أقصد أننا عندما نتحدث عن العالم بمعنى مجازي، كأن نقول: معرفة العالم، أو مجد العالم، أو بالفرنسية: *Le beau Monde, le grand Monde*[27]؛ وعندما نقول في مديح رجل أنه يفهم العالم جيدا، أقول إننا عندما نستخدم (العالم) بهذه الطريقة،

27- العالم الجميل، العالم العظيم.

فهو يعني، ونحن نفهم منه، نفس العالم الذي يقدم لنا الإنجيل تحذيرات كثيرة جدا منه ويتكلم ضده بقسوة شديدة. أما الشيء الثاني فهو أني قد كتبت في عصر وأمة حيث يبدو أن الجزء الأكبر من الناس العصريين، وما يمكننا أن ندعوه بأفضل أنواع الناس، يجدون متعة أكبر في المتع الدنيوية مما يجدونه في المتع الروحية، في نفس الوقت الذي يؤكدون فيه أنهم مسيحيون، وأن أيا ما يمكن أن يقولوه أو يعظوا به أو يكتبوه عن دولة مستقبلية وسعادة أبدية، فكلها مرتبطة على نحو وثيق بهذا العالم الشرير، أو على الأقل أن الأغلبية في أفعالها ومساعيها تبدو حريصة بلا حدود على الأولى أكثر مما هي حريصة على الثانية.

لو أنك ستضع هذين الشيئين في اعتبارك، فستجد أني افترضت عدم ضرورية الرذيلة إلا وسط هؤلاء الذين يضعون في اعتبارهم العظمة الدنيوية ويعتقدون أنها لازمة للسعادة. كلما زادت الصناعات الطريفة والمرهقة، كلما وظفت مزيدا من الأيدي العاملة، ومع تنوع هذه الصناعات، سيزداد عدد العمال أيضا، وهو ما لا يتطلب دليلا. من الواضح بالمثل أن التجارة الخارجية تتركز في تبادل السلع وانتقالها من مكان إلى آخر. ليست هناك أمة، لا تملك ذهبا أو فضة يخرجان وحدهما في أرضها، يمكنها أن تشتري منتجنا إلا إذا قمنا نحن، أو أي كيان آخر، بشراء منتجاتها. لا تُمنح البلاد صفات التحضر والازدهار قبل أن تصل إلى درجة كبيرة من الثراء، وأي دولة مزدهرة دونه هي خبز بلا

قمح، أو باروكة بلا شعر، أو مكتبة بلا كتب.

سيقول أي قارئ متسامح إن تأكيدات مثل هذه من الممكن قبولها، والمنافقون، بوضعهم طبقات من البريق الزائف فوق الأشياء وإضفاء تفسيرات محابية على أفعالهم، قد يقنعون العالم أنهم كي يحققوا هذا الاستهلاك الضروري كدحوا من أجل الصالح العام، وأنهم تغذوا على سمك السلمون والطربوت، وطيور السمان ودرسة الشعير، وأغلى الأصناف، ليس لإرضاء أذواقهم العصية على الإرضاء ولا غرورهم؛ لكن للإبقاء على تاجر السمك وبائع الدواجن والبؤساء الكثيرين الذين يكدون يوميا لخدمتهم من أجل رزق بائس. وأنهم يرتدون الديباج المطرز بالذهب ويصنعون ثيابا جديدة كل أسبوعين ليس لإشباع كبريائهم أو نزواتهم، بل لمصلحة بائع الأقمشة والتاجر والنساج، ولتشجيع التجارة في العموم. وأن الإسراف في موائدهم، وفخامة ولائمهم، ليست إلا آثارا لطبعهم المضياف وإحسانهم للآخرين ونزعتهم الكريمة. وأن التفاخر أو المباهاة لا يد لهما في هذه الأمور، ولا في تخصيص مبالغ هائلة من أجل أناقة وروعة التجهيزات والحدائق والأثاث والمباني. أجرؤ على قول إن كل هذه الأشياء ستتجاوز عنها، لكنك لو سمعت رجلا يقول إن هذا الاستهلاك يعتمد بشكل أساسي على خصال نتظاهر بأننا نخجل منها، سيكون هذا مشينا بالنسبة لك، ولو أصر هذا الرجل أنه بدون رذائل الإنسان سيكون من المستحيل التمتع بكل الراحة والمجد والعظمة التي يمكن

للعالم أن يقدمها، والتي نحن -باختصار- مغرمون بها؛ ستعتقد أن تأكيده مفارقة فظيعة.

كثير من الناس يعتقدون أن الجوع، رغم أنهم لم يشعروا قط بأحواله المتطرفة، مطلوب للإنسان كي يعيش كما هو مطلوب لطائر الغاق أو للذئب، وأنه بدون الشهوة، لو أعطيتها اسما ألطف، لما أمكن لجنسنا أن يبقى أكثر مما يمكن للثيران أو الماعز. لكن ولا واحد في الألف يمكنهم تخيل -رغم أن هذا يمكن إثباته بنفس القدر- أنه في المجتمع المتحضر يكون لجشع البعض ووفرة البعض الآخر، سويا مع الكبرياء والحسد لدى أغلب الأفراد، ضرورة مطلقة للصعود بهم إلى مرتبة الأمة العظيمة والقوية -وبلغة هذا العالم- المتحضرة. تبدو هذه مع *ذلك مفارقة أكبر؛ أن الشر الطبيعي وكذلك الأخلاقي، والمحن الأخرى التي نصلي للوقاية منها، لا تسهم فقط في هذه العظمة الدنيوية، لكن قدرا معينا منها ضروري للغاية من أجل كل الأمم، وأنه لا يمكن تصور كيف يمكن لأي مجتمع أن يوجد على وجه الأرض وهو خال من كل شر، طبيعي وأخلاقي في نفس الوقت.*

بيد أن هذه الأشياء مؤكدة، وأعتقد أنها، مثبتة في أمثولة النحل. صادف الكتاب انطباعات عديدة، وقوبل بأعداء لا حصر لهم، ولم يلاقِ سبا ولعنا من أي جهة أكثر من منابر الواعظين إلا من الصحافة. لقد أُطلقت عليّ كل النعوت القبيحة في الجرائد

المطبوعة والتي يمكن للحقد أو للسلوكيات المريضة أن تخترعها؛ لكن أحدا من خصومي لم يحاول أن يدحض ما قلته، أو يُسقط أي حجة واحدة استخدمتها، إلا بالصياح ضدها، وقول إنها لم تكن صحيحة؛ وهذا بالنسبة لي علامة؛ ليس فقط على أن ما طرحته ليس من السهل تفنيده، لكن كذلك على أن معارضيّ أكثر التصاقا على نحو وثيق بالعالم مما تخيلت أنا نفسي أنهم عليه. وإلا فإنه من المستحيل حال إدراكهم لهذه الصعوبة ألا يتفكر بعضهم بالطريقة التالية؛ أقصد بما أن هذه العظمة الدنيوية لا يمكن اكتسابها بدون رذائل الإنسان، فلن يكون لي شأن بها؛ لأنه من المستحيل خدمة الرب وشيطان الثروة، سيتحدد اختياري سريعا، فأنا لا أميل إلى أي متعة يمكن أن تساوي الدخول في مخاطرة أن أكون بائسا في الأبدية، فدعوا من يعمل لعظمة الأمة يعمل، سأستهدف غايات أسمى، وأعتني بروحي.

ما إن تدخل مثل هذه الفكرة في رأس رجل، حتى يُنتزع كل السم من الكتاب، وتفقد كل نحلة إبرتها.

هؤلاء الذين يفضلون في الواقع الروحانيات عن الدنيويات، ويُرى أنهم يتحملون مزيدا من الآلام كي ينالوا السعادة الأبدية، أكثر مما يتحملون للحصول على المتع الزائلة والمجد الفاني لهذه الحياة، لن يتذمروا من القيام ببعض التنازلات عن سهولة العيش ووسائل الراحة وكمالياتها، أو حتى من التخلي عن بعض

ممتلكاتهم على الأرض؛ كي يضمنوا نصيبهم في مملكة السماء. وأيا كان الإعجاب الذي قد يحملوه تجاه الزخارف الطريفة والمخترعات الرائعة لعبيد الشهوة، سيرفضون شراءها على حساب المخاطرة بالسقوط في لعنة الخطيئة. وفي حكمهم على أنفسهم لن يكونوا قضاة هينين، ولن يعتقدوا أنه من الكافي ألا يتصرفوا على العكس من قوانين الأرض، إلا إذا كانوا كذلك يطيعون تعاليم المسيح. لن يكون هناك أي كتاب أوضح ولا أكثر معقولية بالنسبة لهم من الإنجيل، ودون استشارة الآباء الكهنة أو المجالس الكهنوتية، سيكونون راضين بأن إذلال الجسد لم يمكنه أبدا أن يعني الانغماس في كل شهوة، لم يحظرها مشرع دنيوي.

أي مهارة، بربك، ستكون مطلوبة في الجدال من أجل الإقناع بأن الاستسلام لكل المغريات، والخضوع لكل الموضات والأمزجة، والاشتراك في كل تفاهات العالم، هو النقيض بعينه لنبذه والتخلي عنه، لو كان للكلمات أي مغزى على الإطلاق؟ هنا تكمن الصعوبة؛ وهنا يوجد السبب الحقيقي للعراك، وكل الحقد والتجريح الموجه ضد أمثولة النحل وصاحبها. لن يقتصد خصومي أو يقللوا مقدار ذرة من المتع الدنيوية التي يمكنهم شراؤها؛ لأن الأرض بأكملها خُلقت من أجل الإنسان، ويقول التحرريون الشيء نفسه عن النساء، وبعدالة مكافئة؛ لكن اعتمادا على هذا المنطق المثير للرثاء سيأكلون ويشربون بقدر ما يمكنهم من تلذذ: وحقا لا متعة يمكن إنكارها عليهم طالما أنها تُستخدم باعتدال؛ وبالنسبة

للثياب والبيوت والأثاث والتجهيزات والحفلات، يمكنهم العيش في توافق تام مع أكثر الناس خيلاء وترفا وعصرية؛ فقط مع هذا الاختلاف: أن قلوبهم لا يجب أن تتعلق بهذه الأشياء، ويجب أن يكون أملهم الأكبر في الحياة الأخرى. بمجرد أن يوضع هذا الشرط، رغم أنه بالكلمات فقط، فكل شيء في أمان؛ ولا أي ترف أو انغماس في الملذات سيكونان وقحين للغاية، ولا أي راحة عيش ستكون مخنثة للغاية، ولا أي أناقة ستكون غريبة على نحو عبثي للغاية، ولا أي اختراع سيكون مرهقا أو باهظ الثمن للغاية، بحيث تتعارض مع الدين أو أي عهود مقطوعة لنبذ العالم؛ لو أنها مكفولة بعادات وأعراف الآخرين الذين يعتبرون أقرانهم في المكانة والمنزلة.

آهٍ أيتها العقيدة النادرة! آهٍ أيتها المسيحية السهلة! كان ترنتيوس[28] ليخبرهم أن الاعتدال في أشكال من الإسراف لا حصر لها شيء قابل للتنفيذ مثله مثل أن يتحول العقل إلى الجنون: لكن لو سلمنا بإمكانيته، كيف لنا أن نعرف ونقتنع بأنهم صادقون، وأن قلوبهم ورغباتهم قليلة الارتباط إلى هذا الحد بهذه الدنيا الحقيرة، كما يدَّعون، أو أن الأفكار المتعلقة بعالم آت تمثل أي جزء من اهتمامهم الحقيقي، عندما لا يكون لدينا شيء إلا كلمتهم

28- بوبيلوس ترنتيوس كاتب مسرحي روماني إفريقي ولد في قرطاجة سنه 185 ق.م .عاش في روما كعبد وسرعان ما قدره سيده السناتور ترنتيوس ولذلك فقد حمل لقب سيده، وقد ذهب إلي بلاد اليونان بعد أن كتب مسرحياته الست الباقية ومات هناك حوالي عام 159 ق. م.

العارية مقــابلا، وكل مظاهرهــم موحــدة، وأغلب الشواهد المؤكدة ضدهم؟

أعرف أن أعدائي لن يعترفوا أني كتبت بهذه الرؤية، رغم أني أخبرتهم من قبل، وأثبت لهم أن أمثولة النحل كتاب ذو أخلاقيات سامية؛ لكنهم يرفضون تصديقي، وتستمر صرخات لغطهم ضده، وما قلته الآن دفاعا عنه سيُرفض، ويُسمى حيلة للهروب من المأزق، وأنه مليء بالأفكار الخطرة والشريرة والإلحادية، ولا يمكن أن يكون قد كُتب بأي قصد غير تشجيع الرذيلة. ولو سألتهم أي الرذائل هي: الدعارة، شرب الخمر، المقامرة، أو طلبت منهم أن يحددوا أي مقطع واحد يزكي أقل رذيلة خليعة أو يتحدث عنها بطريقة طيبة أو يتغاضى عنها، لن يجدوا شيئا يضعون أياديهم عليه إلا صفحة العنوان. ستقول لكن لماذا إذًا يتخذون هذا الموقف العدائي اللدود ضده؟ لقد أشرت إلى هذا الآن للتوّ، لكني سأكشف هذا اللغز بشكل أوضح.

في هذا الكــتاب موضع المســاءلة، فضحت المتع الحــقيقية للشــهوانيين، وأشرت إلى الــندرة الهائلة لإنكــار الذات الحقــيقي وسط المسيحيين، وبفعلي هذا لم أراع هيــبة رجال الدين أكثر مما راعيت العلمانيين؛ وقد استفز هذا بشدة عددا كبيرا. لكن بما أني فعلت هذا دون أدنى قدر من المبالغة، ولم أتدخل في أي شيء غير ما هو معروف ومشهود بوضوح، وقلت دائما أقل مما يمكنني

إثباته، اضطر خصومي إلى إخفاء سبب غضبهم. ما استفزهم أكثر أنه كُتب دون حقد أو ضغينة، وبأسلوب -إن لم يكن سائغا- فهو على الأقل صريح ويمتلك حس دعابة جيدا، وأجرؤ على قول إنه حر خال من الحذلقة والفظاظة. لذلك لم يقترب أحد منهم أصلا من هذه النقطة، أو ينطق بحرف واحد عن الشيء الوحيد الذي يكرهونني من أجله في أعماق قلوبهم.

وهنا يا سيدي، لا بد أن أزعجك بحكاية رمزية، تعبر عن المراوغات والمظاهر الكاذبة التي تغطي بها أغلبية العالم ميولها الحقيقية وغايات أمانيها. لعلها تكون مسلية لك بمقدار ما في موضوعها من توجيهات حقيقية.

في العصور الوثنية القديمة، كما يقولون، كان هناك بلد غريب الأطوار، حيث يتكلم الناس كثيرا عن الدين، وبدا أغلبيتهم -من المظهر الخارجي- ورعين بالفعل. وكان الشر الأخلاقي الأساسي بينهم هو العطش، وإطفاؤه كان إثما لعينا. لكنهم اتفقوا بالإجماع أن كل واحد منهم كان يولد ظمآنا إلى حد ما. كان مسموحا للجميع ببيرة خفيفة في الحدود المعقولة. وكان يُعد منافقا أو متشائما أو مجنونا من يدعي أنه يستطيع العيش دونها تماما؛ أما هؤلاء الذين كانوا يعترفون بحبهم لها ويشربونها بإفراط، فكانوا يُحسبون أشرارا. وفي كل هذا كانت البيرة في حد ذاتها تُعتبر نعمة من السماء، ولم يكن هناك ضرر من استخدامها؛ لكن

الفظاعة كلها كانت تكمن في التجاوز، دافع القلب، الذي جعلهم يشربونها. ذلك الذي كان يتناول أقل قطرة كي يطفئ ظمأه، كان يرتكب جريمة شنعاء، بينما كان الآخرون يشربون كميات كبيرة دون إحساس بالذنب، لذا كانوا يفعلون ذلك بلامبالاة، وبلا أي سبب آخر غير إصلاح مزاجهم.

كانوا يصنعون البيرة من أجل بلدان أخرى بالإضافة إلى بلدهم، ومقابل كميات البيرة القليلة التي كانوا يرسلونها إلى الخارج، كانوا يتلقون عوائد ضخمة من لحوم خنازير وستفاليا[29] المقددة، ولحوم اللسان البقري، ولحوم البقر المجففة، وسجق بولونيا، وأسماك الرنجة الحمراء، وسمك الحفش المخلل، والكافيار، والأنشوجة، وكل شيء مناسب لجعلهم يبتلعون مشروبهم في متعة. وهؤلاء الذين كانوا يحتفظون بمخزون كبير من البيرة الخفيفة دون استخدامها، كانوا محسودين في العموم، وفي نفس الوقت مكروهين جدا من العامة، ولم يكن أحد ممن لا يملكون ما يكفي منها في جعبته يشعر بالراحة والسلام. وكانت أكبر كارثة يعتقدون أنها يمكن أن تحل بهم، ألا يصبح محصولهم من عشبة

29- مقاطعة ألمانية سابقة كانت مستقلة ذاتيا ضمن إطار الدولة الألمانية «بروسيا». جرى دمجها بعد الحرب العالمية الثانية بقرار من سلطات الاحتلال البريطانية مع أقاليم في شمال حوض الراين لتؤسس مقاطعة شمال الراين - وستفاليا.

الدينار[30] والشعير متاحا وجاهزا، وكلما استهلكوا منهما المزيد كل عام، كلما اعتبروا البلد يزداد ازدهارا.

سنَّت الحكومة قوانين حكيمة للغاية فيما يتعلق بالعوائد المتحصلة من صادراتهم؛ فشجعت إلى حد كبير استيراد الملح والفلفل الأسود، وفرضت غرامات ثقيلة على كل شيء ليس متبلا جيدا، وقد يعوق بأي شكل بيع محصولهم من عشبة الدينار والشعير. أما من كانوا يتولون دفة القيادة، عندما كانوا يتصرفون أمام العامة، كانوا يُظهرون أنفسهم معفيين من كل الجوانب ومجردين تماما من العطش، وسنوا قوانين عديدة لمنع زيادته، وعاقبوا الأشرار الذين كانوا يجرؤون على إطفائه علانية. لو عاينتهم في أحوالهم الخاصة، وتلصصت عن قرب على حياتهم وحواراتهم، لبدوا أكثر شغفا، أو على الأقل كانوا يشربون كميات أكبر من البيرة الخفيفة وأكثر من الآخرين، لكنهم كانوا يتظاهرون دائما أن إصلاح أمزجتهم يتطلب كميات أكبر من المشروب بداخلهم عما يحتاجه من يحكمونهم، وأن ما كانوا يحملونه أساسا في قلوبهم، دون أي اعتبار لأنفسهم، هو إتاحة كمية كبيرة من البيرة الخفيفة بين الرعايا بشكل عام، ووجود

30- عشبة الدينار أو حشيشة الدينار وتعُرف أيضًا باسمها الإنجليزي هوب أو هووبس؛ يتم استخدامها بشكل أساسي كعامل مرير، منكه، ومثبت في الجعة، كما يعطي نكهات ورائحة الأزهار والحمضيات للبيرة. تستخدم أيضا لأغراض مختلفة في المشروبات الأخرى والأدوية العشبية.

طلب كبير على محصولهم من عشبة الدينار والشعير.

وبما أن أحدا لم يكن ممنوعا من البيرة الخفيفة، استخدمها رجال الدين مثلما استخدمها العلمانيون، وبعضهم استخدمها بوفرة بالغة، بيد أن جميعهم رغبوا في أن يظن الناس أنهم أقل ظمأ بحكم وظيفتهم عن الآخرين، ولم يعترفوا قط أنهم كانوا يشربون على الإطلاق إلا لإصلاح مزاجهم. وفي تجمعاتهم الدينية كانوا أكثر صدقا؛ فبمجرد مجيئهم إلى هناك كانوا يعترفون بصراحة -رجال الدين وكذلك العلمانيون، ومن أعلاهم إلى أدناهم- أنهم كانوا ظمآنين، وأن إصلاح مزاجهم كان أقل ما يهتمون به، وأن قلوبهم بجماعها كانت منكبة على البيرة الخفيفة وإرواء عطشهم، مهما تظاهروا بالعكس. الملفت في الأمر أن الإمساك بهذه الحقائق ضد أي شخص، واستغلال هذه الاعترافات بعد ذلك خارج معابدهم، كان يُعد سفاهة كبيرة، وكان كل شخص يعتقد أن مناداته بالظمآن إهانة شنيعة، رغم أنك قد رأيته يشرب جالونات كاملة من البيرة الخفيفة. كان الموضوع الرئيسي لواعظيهم هو الشر العظيم للظمأ، وكانت الحماقة ماثلة في إطفائه. حضوا سامعيهم على مقاومة إغراءاتها، ونددوا بالبيرة الخفيفة، وكثيرا ما قالوا لهم إنها سم، لو شربوها بغرض المتعة أو أي غرض آخر غير إصلاح أمزجتهم.

في حمدهم للآلهة، كانوا يشكرونها على وفرة البيرة الخفيفة

المريحة التي تلقوها منها، على الرغم من قلة ما لديهم مما يجعلهم يستحقونها، وعلى أنهم باستمرار يطفئون ظمأهم بها؛ وفي نفس الوقت كان راضين تماما، لأنها مُنحت لهم من أجل استخدام أفضل. بعد طلب السماح والعفو عن هذه السيئات، كانوا يطلبون من الآلهة أن تقلل ظمأهم، وتعطيهم القوة كي يقاوموا إلحاحه؛ لكنهم وسط أشد توباتهم وجعا وأكثر تضرعاتهم مذلة، لم ينسوا قط البيرة الخفيفة، وصلُّوا داعين أن يستمروا في الحصول عليها بوفرة كبيرة، مع وعد جاد بأنهم مهما كانوا مهملين حتى ذلك الوقت في هذه النقطة؛ إلا أنهم في المستقبل لن يشربوا قطرة منها بأي قصد آخر غير إصلاح أمزجتهم.

كانت هذه التماسات ثابتة، صيغت معا كي تدوم؛ وبما أنها استمرت قيد الاستخدام دون أي تغيرات لمئات عديدة من السنين، ظن البعض أن الآلهة -التي تعرف الغيب- وتعلم أن نفس الوعد الذي سُمع في شهر يونيو، سيُقدَّم لهم في يناير التالي، لم تكن تعتمد على هذه العهود، أكثر مما نعتمد نحن على تلك الكتابات الهزلية التي يقدم لنا بها الرجال بضاعتهم، اليوم مقابل المال، وغدا مقابل لا شيء. كثيرا ما كانوا يبدؤون صلواتهم بطريقة شديدة التقوى، ويقولون أشياء كثيرة بحس روحاني، ومع ذلك لم يكونوا قط مجردين تماما من العالم في صلواتهم تلك، حيث كانوا لا ينهون صلاة دون أن يتوسلوا الآلهة كي تبارك وتزهر تجارة التخمير في كافة فروعها، ولصالح الجميع، وأن يزيد استهلاك

عشبة الدينار والشعير أكثر وأكثر.

لقد كانت هذه الحكاية الرمزية بالمثل مزعجة جدا لأعدائي، لكنهم لم يشتكوا منها قط، ولا أبدوا أصلا استياءهم من هذه المقاطع، حيث كانت مواطن زللهم تُفضح إلى أقصى حد. لكن بسكوتهم عن الشكوى الحقيقية وعدم الإفصاح عنها، كان همهم التالي إعاقة انتشار انتقاداتي لهم حتى لا يقرأ الكثيرون ما قلته؛ وبالتالي عن طريق منح الكتاب سمعة سيئة، وأخذ بعض الاقتباسات الناقصة منه، ينالون -كما قلت من قبل- قرار الإدانة من هيئة المحلفين العليا ضده. لكن بما أن هذه هي أسوأ الطرق في العالم لخنق الكتب في أيامنا هذه، جعلته هذه الطريقة أكثر شهرة، وزادت من مبيعاته. وقد أثار هذا جنون بعض الناس المتحمسين، والآن بدأت أتعرض للهجوم بغضب هائل من كل الجهات، لكن بما أنه لم يظهر أي شيء بعد لا يمكن الرد عليه بسهولة من أمثولة النحل ذاتها، أو من التبرئة التي تحدثت عنها سابقا، فلم أفكر حتى الآن في إيلاء أي من هذه الهجمات اهتمامي.

لقد كُتب العمل لتسلية أناس كسالى، وتوجه إلى أشخاص ذوي تعليم وثقافة كي يقرأوه عندما يكون لديهم وقت فراغ ورغبة في التسلية، وبالتالي فإن مطالبة رجال من أصحاب الأعمال أو لديهم أي شيء آخر يفعلونه، بقراءته سيكون طلبا غير معقول؛ على الأقل يجب أن يكون المؤلف نفسه أكثر تواضعا من أن يتوقع

هذا. لكن لا بد أن أستأذنك في قول إن كل من لم يفعل هذا لا يجب أن يكون بالغ الاستبداد في انتقاداته، كما كان البعض مع مقاطع هي أكثر ما يمكن تبريره في العالم. من المستحيل قول كل شيء في نفس الوقت، ومع ذلك فإن كل إنسان لديه كتاب أمامه، لديه الحرية في فتحه وإغلاقه، متى وأينما أراد. هناك أشياء كثيرة نقبلها كلها، وجزء منها لا يعجبنا قبل أن نتعرف على الكل، ويجب علينا دائما أن نضع في اعتبارنا أن المؤلفين كثيرا ما يدخرون بعض المواضع بغرض توضيحها ويفسرون مواضع أخرى تكون صعبة ومبهمة. حتى عندما نقابل شيئا جارحا بالفعل ومن غير الممكن تقبله، إذا لم نقرأ الكتاب بأكمله فنحن لا نعرف بماذا احتج المؤلف نفسه ضد هذا المقطع؛ فلربما تراجع أو قدم الاعتذار عنه.

ثمة احتمال ضعيف بأن رجلا ذا صدق وحياد وأي قدر من الحكم المقبول يمكن أن يشعر بالإساءة عندما يتأمل في الكتاب بجدية. في المقام الأول سيجد أن ما أدعوه بالرذائل هي طرائق العيش العصرية، أساليب العصر، التي غالبا ما يمارسها ويلقي بالمواعظ ضدها نفس الأشخاص. هذه الرذائل، التي يشعر الأشخاص المذنبون بها بالغضب مني لتسميتها بهذا الاسم، هي ضرورات العيش ووسائل الراحة التي يغرم بها خصومي، وبدلا من التخلي عنها ومفارقتها، يتكبدون عناء تبريرها. وفي المقام الثاني، أني عندما أتوجه بحديثي إلى الآخرين؛ الذين يشعرون

بالرضا دون الكماليات والأشياء الزائدة، ويفضلون الفضيلة والأمانة على الأبهة والعظمة، فإني أستخدم أقوالا مختلفة تماما: *هذا ما قلته في ص (كذا)* عن حق، *أي:* رغم أني أوضحت الطريق إلى العظمة الدنيوية، إلا أني دون تردد فضلت الطريق المؤدي إلى الفضيلة.

لو اعترض أحدهم بأني لم أكن جادا عندما أوصيت بهذه المقولات الزاهدة، فسأجيبه بأن هؤلاء الذين يعتقدون في هذا كانوا ليقولون القول نفسه لبولس الرسول أو ليسوع المسيح نفسه، لو كان قد أمرهم ببيع ممتلكاتهم وإعطاء أموالهم إلى الفقراء. لا يملك الفقر وإنكار الذات أي مغريات في نظر أعدائي؛ فهم يكرهون سحنتهما ومجرد التفكير فيهما، بنفس القدر الذي يكرهونني به؛ وبالتالي، أي شخص يزكيهما لا بد أن يكون هازلا. ليس هناك برهان رياضي أكثر صحة من أن حظر الإبحار وكل التجارة مع الأغراب هو الطريقة الأكثر فاعلية لإبعاد الرذيلة والترف، وعلى نفس القدر تقريبا من الصحة أن المواطنين والرجال ذوي الجـدارة الذين يدافعون عن ذويـهم ويقاتلون لصالح آريس وفوكيس[31]، بمجرد أن ينتظموا في انضباط ويتمرسوا عـلى المشاق، يكونون أجدر بالاعتماد عليهم من الجيوش المـستأجرة والجنود المرتزقة. دع رجلا يخـطب بهذا في لنـدن، وسيـقولون

31- منطقتان في اليونان، ولعل ماندفيل يستخدم التعبير كما نقول في العربية: دفاعا عن الأرض والعرض.

إنه مجنون. لكن لو أن البشر لن يشتروا الفضيلة بالثمن الذي لا يمكن أن تنال إلا به، فخطأ مَن هذا؟

كنت أعرف الناس الذين كان عليّ التعامل معهم، وعندما تحدثت عن الإسبرطيين واقتصادهم، وكم كانوا منيعين على أعدائهم، قلت عندئذ إن هذه الطريقة من العيش والمجد الذي يمكن أن يُكتسب عن طريق هذا الإنكار الصارم للذات، لم يكونا بالأشياء التي يريدها أو يرغبها الإنجليز. هناك عشرون مقطعا في الكتاب عن نفس الغرض، لكن من هذا فقط يتضح تماما، إلا إذا كنت رجلا أحمق أو مجنونا، أنه لا يمكن أن يكون لدي أي قصد لتشجيع أو ترويج رذائل العصر. من الصعب أن تقدموا لي مؤلفا فضحها وسخر منها على نحو أكثر صراحة. أما مخالفات القانون فقد تعاملت معها بأسلوب أكثر جدية، ورغم أنه جرى التلميح بأني مدافع عن كل الشرور والوضاعات في العموم، فلا وجود لشيء كهذا في الكتاب. لقد قلت بالفعل إننا كثيرا ما نرى خيرا واضحا ينبثق خارجا من شر ملموس، وقدمت أمثلة لإثبات أنه بالتوجيه الرائع للعناية الإلهية المبهمة، كان اللصوص والقتلة وأسوأ المجرمين أحيانا يصبحون وسيلة لإنجازات عظيمة في أوقات الكساد، ونعما كبيرة صنعها الرب ومنحها للأبرياء والكادحين؛ لكن بالنسبة للجرائم نفسها، لم أتحدث عنها قط إلا بأقصى كراهية، وفي كل المناسبات حرضت على الضرورة العظمى لمعاقبة كل من يثبت أنهم مذنبون بها، دون محاباة أو تستُّر.

من الصحيح بشكل عام أن الصدق هو أفضل سياسة، حتى بالنسبة للبشر الفانين؛ لكنه لا يرفع الرجال غالبا إلى الثروة والسلطة العظيمتين مثلما يفعل الاحتيال والطموح، والفرصة ما هي إلا نذل كبير. إن المحامين والعاملين في الاستثمارات المالية وموظفي البنوك والسماسرة وكذلك الوكلاء من كل صنف ولون قد يكونون -بلا شك- شرفاء في مهنهم مثلهم مثل غيرهم من الرجال في أي مهنة أخرى، لكن من الواضح في كل المهن أنه كلما زادت الثقة الموضوعة في الأشخاص، وكلما كانت تعاملاتهم أكثر سرية وما شابه بحيث يمكنهم فقط أن يكونوا مسؤولين أمام الرب وضمائرهم، كلما زاد احتمال أن يكونوا محتالين دون أن ينكشف أمرهم. والآن لو أن رجلا يملك مشروعا ما لديه فيه الفرصة للاحتيال على الآخرين دون عقاب، وهو نصاب مكير وبخيل طماع ومنافق أشر؛ هل هناك مجال للتساؤل إن كان لديه احتمال أكبر في الحصول على ثروة عظيمة مع نفس التوجه في غضون سنوات قليلة، أكثر من رجل محسن متدين همه الأساسي ليس موجودا في هذا العالم، في نفس المهنة أو أي مهنة أخرى، وكلاهما نافع بنفس القدر للمتعاملين العادلين؟ لست جاهلا بما يمكن أن يقال ضدي، عن بركة الرب، وعمن قد تحل باحتمال أكبر. فتصرفات العناية الإلهية لا يمكن سبر أغوارها، وتوزيع ما نسميه بالخير والشر في هذه الدنيا لغز لا يمكن تفسيره بالتصورات التي لدينا عن عدل الرب، دون أن يكون لدينا ملجأ

إلى حالة غيبية، وبالتالي لست بحاجة لوضع هذا في الاعتبار هنا. ليست المسألة في أي الطرق هي الأسرع إلى الثروات، لكن المسألة إن كانت الثروات نفسها تستحق أن تُلحق بنا اللعنة من أجلها.

لم تكن هناك قط، ومن المستحيل تصور، وجود أمة ذات وفرة وثراء دون رذائل كبيرة؛ هذه حقيقة، وأنا لست مساهما في كونها كذلك، أو في كشف أمرها. عندما أوضحت ضرورة الرذيلة لجعل أي مجتمع عظيما وقويا، قمت بفضح هذه العظمة، وتركت الأمر لهم، لأعضاء المجتمع، ليقرروا إن كانت تستحق شراءها بذلك الثمن، وأتحدى كل أعدائي أن يروني أين زكيت الرذيلة أو قلت أقل القليل مما أناقض به هذا فعلا، مثل المقولة الرائعة لمسيو بايل: ***Les utilités du vice n'empèchent pas qu' il ne soit mauvais*** [32]. *الرذيلة دائما سيئة، مهما حصلنا على منافع منها* - لكني عوملت بشكل غريب.

لو أن شابا نابغا في الصحة الرياضية، بلغ الرجولة بالكاد، ويهلك جسده بدأب بدون أي هدف آخر غير أن يقلل وزنه، سأحسبه أحمق على تجشمه كل هذه المعاناة؛ لأنه يجازف بالتسبب في ضرر كبير لنفسه. لكن لا بد له أن يكمل، فالمنافسة قائمة، ولديه أستاذ يجب أن يطيعه، وسينتهي أمره لو رفض، لذا

32- منافع الرذيلة لا تمنع كونها سيئة.

فهو يُروَض وفقا لذلك ضد الزمن. لو كانت لديّ رغبة في فضح هذه الممارسة، وكشف كل ما يجب على رجال الحمية أن يمروا به كي يفقدوا الوزن، وإطلاع العالم على المشروبات الحادة التي يتناولونها، وكيف يتم تطهيرهم وجعلهم يعرقون ويُقتَّر عليهم في طعامهم ويُحرمون من راحتهم الطبيعية؛ أقول لو كانت لديّ رغبة في فعل هذا، والسخرية من تلك الحيل، فلا أرى أين سيكون الضرر. أما بالنسبة للشيء نفسه، ولا أحد سيشك في ذلك، فإن شرب الخل وتناول الأدوية والسهر والتضور جوعا سيكونون وسائل أكثر ملاءمة لفقد الوزن من التغذية الجيدة ثلاث مرات في اليوم والنوم المريح في الليل. لكن المسألة هي إن كان تقليل الوزن أو ركوب الخيل نفسه يمكن أن يكونا بهذه الأهمية، حتى أن رجلا قد يتحمل كل هذا من أجلهما؛ وأعتقد أن أغلب الناس البعيدين عن اتباع هذه الوسائل، سيشعرون بالرضا من إبداء الإعجاب والضحك على حماقة الأمر. لكن سيكون من الهمجية قول إني قد زكيتها عندما كشفت أمرها بصراحة معارضا لها. لكن ماذا تقول لو أن فرسان السباق أنفسهم، مستمرين في ممارستهم السابقة، وعلى سبيل الانتقام من فضحي للأمر، تظاهروا بجدية بالهجوم عليّ لتطرقي بالحديث عن عقيدة مدمرة، تعرض صحتهم للخطر، وتفسد نمو الشباب، ولإثبات دعاواهم قاموا باقتباس أكبر عدد ممكن من كلماتي نفسها بما يخدم غرضهم، ولا أكثر؟

أضرب هذا كتشبيه قريب جدا من حالتي: وكل تشبيه

قاصر[33]. لكن ليس بكاف بالنسبة لي أن أقول إني بريء، بنفس القدر الذي لا يكفي فيه أعدائي أن يهتفوا بأني مذنب؛ فالرجال ذوو الحس والإدراك لا يستطيعون تحمل البقاء تحت سطوة أي من الحالتين طويلا: إنه ذلك الكتاب الذي لا بد أن نتحمله أو نسقطه في النهاية، وإلى هذا الكتاب أحيل كل القراء الحصيفين وكذلك المحايدين. سيكتشفون سريعا السبب الحقيقي للشر، وكل هذه الجعجعة ضدي، وأن كشفي للحياة المترفة لبعض الرجال، وإظهاري للندرة الكبيرة لإنكار الذات وسط المسيحيين وكذلك غيرهم، وباختصار، إدانتي وهجومي اللاذع وسخريتي من الرذيلة والرياء، قد جلبوا عليّ أعداء بلا نهاية أكثر من كل التشجيع المزعوم للرذيلة واللاأخلاقية التي يمكنهم أن يقابلوها؛ ولو أنه بعد مطالعة كل شيء، لم يقتنع جميع الرجال ذوي الإخلاص والقدرة على قراءة كتب من هذه النوعية، أقول لم يقتنعوا تماما بهذا، فليكن نصيبي الاحتقار والازدراء إلى الأبد، ولأفقد الرأي الطيب من كل الرجال الذين أقدرهم. لكن يظل العنوان: الرذائل الخاصة، والمنافع العامة.. سيقال لي إن سماعه ورؤيته لا بد أن يكونا جارحين لهؤلاء الذين لا يقرأون الكتاب، ولن يتعطفوا أبدا بالنظر داخله.

من فضلك يا سيدي، فلنتأمل هذا. من الواضح أن تلك الكلمات:

33- باللاتينية في الأصل omne simile claudicat، وترجمتها الحرفية: كل مثل يعرج.

الرذائل الخاصة، والمنافع العامة لا تصنع جملة كاملة وفقا لقواعد النحو، وأن هناك على الأقل فعل ناقص -إن لم يكن قدر أكبر بكثير- لجعل المعنى كاملا. في التبرئة الملحقة بأمثولة النحل قلت إني أفهم منها أن الرذائل الخاصة، عن طريق الإدارة البارعة لسياسي حاذق، قد تتحول إلى منافع عامة. *ليس هناك شيء مقحم أو غير طبيعي في هذا التفسير، ويجب أن تكون لدى كل امرء الحرية في أن يكون مؤولا لكلماته هو نفسه. لكني لو تنازلت عن هذا الامتياز، فإن أسوأ تفسير يمكن إضفاؤه على الكلمات هو أنها خلاصة لما عملت بجد لإثباته طوال الكتاب؛ أن ترف ورذائل الإنسان، في ظل القواعد والقيود الموضوعة في أمثولة النحل، هي تابعة، بل وملازمة* للهناءة الدنيوية للمجتمع المدني؛ أقصد ما تُدعى عادةً بالسعادة الفانية، وتُرى على هذا النحو.

أما بالنسبة لهؤلاء الذين، دون قراءة الكتاب، قد يفسدوا لمجرد رؤية أو سماع تلك الكلمات: الرذائل الخاصة والمنافع العامة، فأنا أعترف بأني لا أعرف أي عون يمكنني أن أقدمه لهم. فالأشخاص الذين يحكمون على الكتب من العناوين، لا بد في الغالب من فرض الأمر عليهم فرضا. لا يوجد تجديف ولا خيانة في الكلمات، وهي بعيدة بقدر كاف عن أن تكون قولا فاحشا؛ ولو أن هناك أي أذى يُخشى منها، فلا بد أن (اشرب وكن ثريا) وهو عنوان كان يُنادى به في الشوارع، أكثر خطورة بكثير. فهذا

العنوان الأخير وصية مباشرة، مذهب ضار وكذلك مضلل، مؤلف في جملة كاملة، مكتوبة بصيغة الأمر. أي عاقبة غريبة ستكون، خاصةً بين الفقراء، لو أنه بناء على حكمة هذا العنوان وأخذه على أنه نصيحة مفيدة، تصرف الناس وفقا لها دون مزيد من التمحيص والدراسة؟

السبب الحقيقي لاستخدامي هذا العنوان: رذائل خاصة، ومنافع عامة، كما أعتقد بصدق، كان إثارة الانتباه؛ فبما أنه يُعد مفارقة بشكل عام، وقع اختياري عليه على أمل أن هؤلاء الذين قد يسمعونه أو يرونه سينتابهم الفضول لمعرفة ما يمكن أن يقال لإثباته، وربما يشترون الكتاب أسرع مما كانوا ليفعلوا مع عنوان آخر. هذا، على أقصى علم لي، هو كل المعنى الذي وضعته فيه، وأعتقد أنه لا بد كان من الغباء أن أضع أي عنوان آخر.

لو قيل على سبيل الجدال إن هذه المنافع دنيوية، فأنا أسلم بهذا؛ وقد يرى كل إنسان بأي معنى أدعوها بذلك؛ بلغة العالم والعصر والزمن الذي أعيش فيه: هذا الخصم من بين خصومي فهم الأمر بوضوح، وسعى للاستفادة منه ضدي بقوله إنه لا شيء يمكن أن يكون منفعة حقيقية وهو لا يفضي إلى سعادة الإنسان الأبدية، وأنه من الواضح أن الأشياء التي منحتها ذلك الاسم -المنافع- ليست كذلك. وأنا أتفق معه في أن خلاص الإنسان هو المنفعة الأعظم التي يمكنه نيلها أو الأمل فيها، وأنا

مقتنع بأنه في معرض الحديث عن الأشياء الروحية فإن الكلمة ملاءمة جدا بهذا المعنى، ونفس الشيء يمكن قوله عن كلمات أخرى مثل: فائدة، مكسب، وإذا شئت: ربح. لكني أنكر أنه بدون أي إضافة يكون هذا هو القبول الشائع لهذه الكلمات؛ وفي ذلك آمل أن تكون لدي الحرية في استخدام الكلمات مثلي مثل بقية إخوتي من المواطنين. كل الامتيازات المؤقتة والمزايا الدنيوية أيا كانت تُدعى بالمنافع، وهناك ألف شيء نافع للجسد، ولا علاقة له بالروح. هكذا قد يستفيد مجرم من رجال الدين، كما في صكوك المنفعة، وهكذا قد يذهب رجل إلى الريف للانتفاع من الهواء الصافي. أود أن أسأل هذا السيد النبيل، عندما يقرأ، في حالة أن مسرحية تُمثَّل لمنفعة هذا الرجل، فأيهما يعتقد أنه المنفعة التي تسهم أكثر في سعادته الأبدية:المال الذي يتلقاه الشخص، أم العرض نفسه؟

لكني أكثر حرصا ودقة مما يتخيل أعدائي. لو أني جعلت قرائي يفهمون أن رذائل البشر غالبا ما تثبت أنها ذات ميزة دنيوية لهؤلاء الذين يقترفونها، رغم أن هذا صحيح جدا، لكن في هذه الحالة ما كنت لأستخدم كلمة المنافع بهذه الطريقة العمومية للغاية؛ حيث أنه لا شيء له أهمية أكبر بالنسبة لكل فرد من سعادته المستقبلية، فلا شيء يمكن أن يكون نافعا له، بمعنى غير محدود، قد يدمر أو يتدخل بأي شكل مع سعادته الأبدية. لكن هذه السعادة الأبدية لا يمكن أن تبدأ فورا إلا بعد هذه الحياة،

وعندما يموت الإنسان، يتوقف عن أن يكون عضوا في المجتمع، ولا يعود جزءا من الجمهور العام، والأخير هو كيان جمعي من المخلوقات الحية، تلك التي تعيش على الأرض؛ وبالتالي -بسبب هذا- غير قادرين على التمتع بالسعادة الأبدية. قد يذهب شخص بخيل طماع مباشرة إلى الجحيم، جزاء وفاقا لشُحه وابتزازه، في نفس الوقت الذي تكون فيه الثروة التي يتركها والمستشفى التي يبنيها مصدر راحة كبيرة للفقراء، وبالتالي منفعة عامة.

لو أن رجلا سيؤكد أن الجمهور العام ككل غير قادر على أن تكون لديه أي ديانة على الإطلاق، فقد يكون هذا، ربما، صادما لبعض الناس؛ لكنه صحيح مثلما أن الكيان السياسي، وهو ليس إلا اسم آخر للجمهور العام، ليس لديه كبد أو كليتان، لا رئتان حقيقيتان ولا عينان بالمعنى الحرفي. ربما تشترك حشود مختلطة من البشر الأخيار والأشرار، من نوعية عالية وأخرى دنيئة، في الأمارات الظاهرية للتقوى، ويؤدون معا ما يُسمى بالعبادة العامة؛ لكن الدين نفسه ليس له مكان إلا في قلوب الأفراد، وأقصى ما يستطيع مشرع أن يفعله لصالح الدين في بلد مسيحي هو، أولاً، أن يرسخه بالقانون، وبعد ذلك يضع كل طريقة لتأمين وترويج ممارسته من ناحية، ومن الناحية الأخرى أن يمنع ويعاقب الشر وكل سلوك به معصية، يمكن أن يقع تحت علم القضاة. لكن كل هذا أعتقد أنه ضروري في الإدارة المدنية لكل الحكومات، من أجل الصالح الدنيوي للجميع، قبل أن تُطرح

مسألة المسيحية الحقة، والتي هي اهتمام خاص لكل فرد. ورغم أني لم ألاحظ هذا في كل مكان، عندما كنت أعالج الشهوانيين، لكن عندما صادفت هذا بشكل مباشر في طريقي، أوصيت كل القضاة في حماس أن يهتموا بالعبادة الدينية، حتى عندما كان أقصى اهتمامي موجها لثروة وعظمة الأمم، وتقدم المجد الدنيوي، والذي يجب على المسيحيين الصالحين ألا تكون لهم علاقة كبيرة بهم. في ذلك يمكنك أن ترى دليلا لا يُنكَر في صفحة (كذا)، حيث أقول في معرض الحديث عن التعاليم التي يتلقاها أبناء الفقراء في الكنيسة[34]: لا أريد أن أجد واحدا من أحقر أبناء الأبرشية القادرين على المشي غائبا عنها أو عن أي مكان عبادة آخر في أيام الآحاد. إنه يوم الأحد؛ أكثر الأيام السبعة نفعا، المخصص للخدمة الإلهية والممارسة الدينية بالإضافة إلى الراحة من العمل البدني، وهناك واجب حتمي على كل القضاة أن يولوا اهتماما خاصا بهذا اليوم. ويجب إلزام الفقراء وأطفالهم على الأخص بالذهاب إلى الكنيسة قبل الظهر وبعده؛ لأنهم لا يملكون وقتا في أي فترة أخرى. إذ يجب أن يُشَجعوا ويتعودوا على ذلك بالإرشاد والقدوة منذ طفولتهم؛ ويجب أن يُعدَّ الإهمال المتعمد للقيام بذلك عملا مشينا، وإذا بدا الإلزام المباشر لما أحث عليه قاسيا بشكل لا يُحتمل وربما غير عملي؛ فعلى الأقل يجب تحريم جميع أشكال

34- المقطع التالي من مقال ماندفيل الطويل: (مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية) وترجمته الكاملة في كتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) الذي قمت بترجمته وصدر عام 2014.

اللهو، ومنع الفقراء عن كل تسلية في أي مكان قد تجذبهم أو تشدهم منه.

أعود إلى موضوعي. كم قد يكون صادما للبعض، وسخيفا لدى آخرين، الجزء التفسيري الذي ذكرته للعنوان، لكنه صحيح على نحو لا رجعة فيه؛ وهناك طرق عديدة يمكن بها أن تصبح الرذائل الخاصة منافع عامة، طرق أكثر واقعية وقابلية للتنفيذ مما قدمه منذ بعض الوقت ذلك القس الجاد الذي استعرض دينه وتقواه بإسهاب بالغ في ذلك الاعتراف المتنكر بإيمانه: (حكاية منبر)[35]. قد يتجادل الناس حول تعريف الترف بقدر ما يشاؤون، لكن عندما يتمتع الرجال بكافة ضروريات الحياة منذ نعومة أظفارهم، ومع ذلك يستوردون الكماليات من البلاد الأجنبية، تلك الأشياء التي يمكنهم (كما يفعل الكثيرون بالفعل) أن يعيشوا في راحة بدونها، فهذه بالتأكيد درجة من الترف، لو أن هناك شيئا اسمه الترف في العالم. والآن لو أن مشرعا عليه أن يهتم بخير، وبالتالي بحماية، وكذلك بسلام الجمهور العام، أدرك هذا الميل الحاد واللهفة على الكماليات، واستغل هذا كوسيلة لتوفير الأمن العام، وجمع المال فعلا بفرض رخص على

35- A Tale of A Tub كان أول عمل كبير كتبه جوناثان سويفت، والذي يمكن القول إنه هجاؤه الأكثر قسوة وربما الأكثر إتقانًا. ونشر في 1704. يترجمه الكثيرون باسم (حكاية حوض الاستحمام) لكن المقصود هنا المنبر الذي كان يستخدمه المنشقون عن الكنيسة حسب تفسير ألكسندر بوب.

استيراد مثل هذه الكماليات الأجنبية؛ ألا يمكن القول إنه بهذه الإدارة الماهرة تحولت الرذائل الخاصة إلى منفعة عامة؟ وألا يتم هذا عندما توضع رسوم ثقيلة على السكر والنبيذ والحرير والتبغ ومائة شيء آخر أقل ضرورة، ولا يمكن شراؤها إلا بكد وعناء لا نهائيين، وبالمخاطرة بحياة الرجال؟ لو قلتَ لي إن الرجال يمكن أن يستغلوا كل هذه الأشياء باعتدال، وبالتالي لا تُعد الرغبة فيها رذيلة، سأجيبك بأنه إما ألا تُدعى أي درجة من الترف بالرذيلة، أو أنه من المستحيل وضع تعريف للترف، والذي سيسمح الجميع بأن يكون واحدا فقط.

لكني سأعطيك مثالا آخر، لكم يمكن أن تكون الرذائل صريحة وجسيمة، وتتحول إلى منافع عامة. إن عمل كل المشرعين هو السهر على الخير العام، ومن أجل حدوث ذلك، يكشفون كل مصدر إزعاج، كل شر، لمنع ما هو أفدح بكثير، لو أنه من المستحيل تجنب ذلك الشر الأفدح بطريقة أرخص. لذا نص القانون، واضعا في الاعتبار الزيادة اليومية للأوغاد والأشرار، أنه لو قام مجرم، قبل أن يدان هو نفسه، بالوشاية باثنين أو أكثر من شركائه في الجريمة، أو أي مجرمين آخرين، بحيث يدانوا بارتكاب جريمة يعاقب عليها بالإعدام، يُعفى عنه ويطلق سراحه مع مكافأة مالية. لا شك أن هذا قانون جيد وحكيم؛ لأنه بدون هذه الحيلة، ستمتلئ البلد باللصوص وقاطعي الطرق أكثر عشر مرات مما هي عليه، ولأنه بهذه الطريقة لا نتخلص فقط من عدد

من الأوغاد أكبر مما يمكننا توقعه من أي وسيلة أخرى، لكنها أيضا توقف نموهم، وتكسر عصاباتهم، وتحول بينهم وبين الثقة في بعضهم البعض. إن ثلاثة مجرمين يعملون بشكل منفصل لا يستطيعون أن يقوموا بكثير من الأذى الحقيقي من كل النواحي مثلما يفعلون عندما يعملون صحبة. في الوقت نفسه من الواضح أن القانون في هذه الحالة لديه فقط اهتمام بالصالح العام، ولتحقيق هذا ينحي جانبا كل القوانين الأخرى، وينطلق في اتجاه معاكس بعض الشيء للتصورات العامة التي لدينا عن العدالة؛ والتي تتكون -وفقا للمواطنين- من رغبة دائمة وثابتة في منح كل شخص ما يستحقه. لأنه بدلا من الشنق، الذي هو ما يستحقه كل مجرم، يعفيه، وخشية أن يحمل بعض الخير الباقي، وأن تجعله تلك الرحمة الطبيعية غير راغب في تدمير أعز أصدقائه، وربما أخيه نفسه، يدعوه القانون لفعلها بمبلغ كبير من المال، وبالفعل يرشوه كي يضيف إلى بقية جرائمه ذلك الجزء من الخيانة والغدر برفاقه، الذين أقسم على الولاء لهم، وربما جذبهم إلى الشر.

عبثا تقول لي إن هذه الوشاية برفاقه ليست جريمة بالنسبة لمجرم، بل واجب يدين به لبلده، وأني لا أعرف أن هذا تأثير لتوبته الصادقة، التي تجعله ينظر لهذا الاعتراف الصريح باعتباره التعويض الوحيد الذي يمكنه تقديمه للجمهور عن كل الإساءات التي فعلها ضده. هؤلاء الذين يشون بالآخرين بدافع من ضميرهم، وإحساس بواجبهم، لم يكونوا الرجال الذين وضعهم

المشرع في اعتباره. عندما وُضع هذا القانون كان معروفا جيدا مما لوحظ عن اللصوص والنشالين والهجامين على البيوت أن هؤلاء المجرمين الشائعين سيفعلون أي شيء ليحصلوا على المال، وأكثر من ذلك لينقذوا حياتهم، عندما يدركون أنها عرضة للفقد. معرفة هذا كانت هي الأساس لذلك القانون. لأن أسوأ المجرمين لديهم صداقة وعاطفة تجاه أحدهم الآخر، والإخلاص والوفاء والبسالة تُعد خصالا ثمينة وسطهم، كما هي بين الآخرين من الناس. وأي مجرم يشي بآخر لمجرد المال، ودون ضرورة، يظن نفسه مذنبا بتصرف سيء، ومن بين مئات كثيرة من الأوغاد الذين وشوا وتسببوا في شنق رفاقهم، لا أعتقد أنه كان هناك أبدا واحد جعل نفسه شاهدا ضد شريك لم تكن بينهما عداوة من قبل، لو أمكنه الحصول على نفس الميزة الدنيوية بإمساكه لسانه.

يوضح هذا فائدة مثل ذاك القانون، وفي نفس الوقت حكمة السياسي الذي تتحول بإدارته الماهرة الرذائل الخاصة لأسوأ الرجال إلى منفعة عامة. ثمة رجال لديهم رأي يقول بأنه لا يوجد شر إيجابي يمكن فعله أو الأمر به ويأتي منه خير من أي ناحية مهما كانت. لو ارتاب أي واحد من هؤلاء الرجال في عدم وجود بعض المعقولية أو فائدة أخرى في هذا القانون، بالإضافة إلى إسهامه في خير المجتمع؛ فأود أن أسأله إذا لم تكن تلك حماقة لا تغتفر، بل تصرفا شريرا من أي مشرع، لو أنه سن قانونا يقضي بأن بائسا تعرض لأقصى حالات التخلي وصار مذنبا بجرائم

كثيرة عقوبتها الإعدام، ودون أن يبدي أي شعور بالندم يتم العفو عنه، بل ويحصل كذلك على مكافأة مالية ويُطلق سراحه مرة أخرى على الجمهور؛ لو أن المقصود بمثل هذا التصرف الاستثنائي، أي تقليل السرقات والمجرمين، يمكن الحصول عليه بأي وسيلة أخرى، أقل تصادما مع المفاهيم الشائعة لدينا عن العدالة؛ ورغم أن هذا صحيح ولا يمكن إنكاره، فإن السبب الوحيد الذي يمكن تقديمه ليقول إن سن هذا القانون ليس شرا ولا حماقة هو الضرورة، والمنفعة العامة المنتظرة منه.

لو أن كل ما قلته حتى الآن في الدفاع عن أمثولة النحل، وما اقتبسته منها لم يغيرا الرأي الذي يبدو أنك قد كونته عن الكتاب، فأعتقد أنه من العبث قول أي شيء آخر. آمل أن يكون القراء الآخرون أقل عنادا وأن يقتنعوا قبل ذلك؛ أنه لم يُكتب لتشجيع الرذيلة ولإفساد الأمة، وهو كل ما أريد؛ أما عن العمل نفسه، سواء كان جيدا أو سيئا، فلن أقول شيئا عنه، مهما كان ما أعتقده. أؤمن صادقا يا سيدي أن أغلب المؤلفين (مهما قالوا العكس) لديهم رأي في أعمالهم أفضل مما تستحق، وأتخيل أن أغلب الناس يعتقدون كذلك أيضا. لذلك سواء كان مكتوبا بشكل جيد أو سيء، بالنسبة للبيان والأسلوب وكل ما يخص الإنشاء، فهذا ما لا أشغل رأسي به قط، رغم أنه أدين بشكل أكثر عمومية مما هو عليه.

منتقدو الكتاب أنفسهم، الذين هاجموه على الملأ، ليسوا

مجمعين على جدارته؛ واثنان منهم، كتب كلاهما ضده باسمهما الحقيقي، يختلفان بشكل واسع جدا في رأيهما عن هذا الإنشاء. ثمة ناقد شهير، يبدو أنه يكره كل الكتب التي تجد رواجا، ولا غيرها، في غضبته مع هذه الحالة قال منتقدا أمثولة النحل بهذه الطريقة: «إنها قصيدة ملحمية بائسة، ذكاؤها منخفض، ودعابتها دنيئة بشكل حقير، واللغة غير فصيحة غالبا.» لكن كاهنا محترما كتب مقدمة طويلة ضد نفس الكتاب يبدو أنه لم ينفر من أسلوبه، ولا تعجب من رواجه السريع، والذي يعزوه بدرجة كبيرة إلى الأسلوب المنطلق والسلس والرشيق للمؤلف. من هذا التضارب في الآراء لن أستدل على أي شيء آخر غير أنه: لو عرف الناس الكتاب معرفة حقة، فليس من الأمان الثقة في التقارير التي شاعت عنه. الأمر المثير للشفقة أنك لم تعرف هذا قبل أن تكتب كتابك (الفيلسوف الدقيق)!

هناك قلة من الرجال، حتى من بين الأكثر تمكنا، يستطيعون الحكم على الكتب بحياد. نحن غالبا ما نتأثر بحبنا أو بكراهيتنا قبل أن ندرك ذلك نحن أنفسنا. لقد التقيت العديد من خبراء الحكم على الكتب الجيدين الذين لم يعجبهم كتابك (ألسيفرون) وتحدثوا عنه باستخفاف شديد؛ واكتشفت أن السبب الرئيسي أنك هاجمت كل المفكرين التحرريين دون استثناء. لكني أعلن أني أرى كتابك، في العموم، مكتوبا بشكل جيد؛ رغم أنك قد استغللتني بطريقة غير رحيمة على الإطلاق، ولم تسلك في ذلك،

لو أنك قرأت أمثولة النحل، كما يسلك رجل شريف. عندما يملك شخص ما وجها جميلا، لا يمكنني أن أكون غبيا إلى حد اعتقاد أنه قبيح، لأنه استغلني بشكل سيء. أنا أختلف عن سيدي اللورد شافتسبري كلية، فيما يتعلق باليقين حول العادل والصادق بعيدا عن الأسلوب والشكل. وأختلف معه أيضا حول (أصل المجتمع)، وفي أشياء كثيرة أخرى، خاصةً الأسباب لكون الإنسان مخلوقا اجتماعيا، بشكل يتجاوز الحيوانات الأخرى. أنا مقتنع تماما بأن سيادة اللورد كان في الجانب المخطئ في كل هذه الأشياء؛ لكن هذا لا يعمي فهمي إلى حد ألا أرى أنه مؤلف جيد، وأنه كاتب أفضل بكثير مني أنا نفسي، ومنك أيضا. لو كان ذلك اللورد النبيل مؤلفا أسوأ بكثير، وكتب في جانب الاستقامة والكنيسة، أتخيل أنك كنت لتظن في قدرته ظنا أكثر تأييدا. لقد رأيت ما استشهدت به منه، والأسلوب الذي فعلت به ذلك. لكن أي نصيب في هذا يخص الثلاثة مجلدات الضخام، والأشياء الكثيرة المثيرة للإعجاب التي قالها ضد الكهنوت ومع جانب التحرر والسعادة الإنسانية؟ بشكل عام أجرؤ على قول إن كتابك (الفيلسوف الدقيق) سيجد قراء قليلين جدا، من بين هؤلاء الذين قرؤوا، وليس من سماتهم أن يكونوا سكارى ثملين، لن يعتقدوا أن سيدي اللورد شافتسبري

يستحق عُشر الإذلال والاحتقار الذي تعامل به كراتيلوس[36].

قد يختلف رجلان في الرأي، وكلاهما يقصد الخير. أنت يا سيدي تعتقد أنه من أجل صالح المجتمع ينبغي أن تُمجَّد الطبيعة الإنسانية قدر المستطاع، وأنا أعتقد أن وضاعتها وتشوهها الحقيقين هما الأكثر فائدة وتوجيها. هدفك هو أن تجعل الناس يقتدون بالأصل الجميل، ويسعون إلى أن يرتقوا في عيشهم إلى شرف ذلك الأصل؛ وهدفي هو التشديد على ضرورة التعليم، وكبح جماح الزهو والتفاخر. لقد سعدتُ كثيرا بما تقوله في محاورتك الأولى عن أشجار التفاح والبرتقال؛ الثمرات المختلفة للأولى، وثقافة الثانية. هذه الأمثولة عبقرية للغاية، واستعمالها مضبوط؛ لكني أعتقد أن الخلاصة التي يمكن استنتاجها منها لن تكون ذات نفع عظيم لك. في صفحة (كذا) يطرح يوفرانور سؤالا على ألسيفرون: لماذا لا يمكننا الاستنتاج بتكافؤ المنطق أن الأشياء يمكن أن تكون طبيعية بالنسبة للجنس البشري، ومع ذلك ليست موجودة في كل البشر ولا هي متشابهة على نحو لا يتغير أينما وجدت؟ أجيبه أنا: يمكنها. لكن لو أنه أمكن النظر إلى كل المعرفة والإنجازات التي يمكن للبشر الوصول إليها على أنها

36- كراتيلوس كتاب يضم إحدى محاورات أفلاطون. ويتفق معظم الباحثين أن معظمه كتب خلال ما عرف بفترة أفلاطون الوسطى. ويقابل سقراط في المحاورة رجلين هما كراتيلوس وهيرموجينيس، ويسألانه إذا كانت الأسماء «تقليدية» أو «طبيعية»، أي ما إذا كانت اللغة هي نظام من العلامات العشوائية أو ما إذا كانت الكلمات لها علاقة متأصلة بالأشياء ذات الدلالة.

طبيعية كذلك ومميزة للجنس كله، فلا بد أن الأمر ينطبق كذلك على الرذيلة والشر، كما ينطبق على الفضيلة والفنون الحرة؛ وما لم يكن ليخطر على خيالي من قبل: لا بد أن يكون من الطبيعي أن يقتل الرجل أباه، كما هو طبيعي أن يوقره ويبجله، وأن تسمم المرأة زوجها، كما يمكن أن تحبه.

لو أنك فقط يا سيدي نظرت في الأسباب التي قدمتها للتمييز بين ما هو طبيعي وما هو مكتسب، فلن تجد أي نية سيئة في تلك الممارسة. ثمة كثير من الأشياء الصحيحة التي يعتقد العامة والغوغاء أنها متناقضات. صدقني يا سيدي، إن فهم طبيعة المجتمع المتحضر يتطلب الدرس والخبرة. إن لم يكن الشر هو أساسه فعلى الأقل هو عنصر ضروري في المركب، والسعادة الدنيوية للبعض غير منفصلة عن بؤس الآخرين. إنهم لحمقى هؤلاء الذين يتخيلون أن صالح المجموع يتسق مع صالح كل فرد، وأغلبنا منافقون. كل واحد يهتف ضد الترف، ومع ذلك لا توجد طبقة من البشر غير مذنبة به، ولو لم يسع المشرعون دائما للحفاظ على كل المهن والصناعات التي تزودنا بوسائل وأدوات الترف، سيُوجَّه لهم اللوم. إن الرغبة في زيادة التجارة والإبحار وتقليل الترف في نفس الوقت، تناقض. لأنه افترض أن المشرعين، بمساعدة رجال الدين، تمكنوا من فرض حالة توفير عامة في هذه الأمة، لن يمكننا أبدا الإبقاء على حركة تدفقنا وتوظيف نفس الأيادي العاملة وعمليات الشحن، إلا إذا استطاعوا

بالمثل إقناع الأمم التي نتعامل معها بأن تكون أكثر وفرة مما هي عليه الآن، بحيث أنها تنتزع من أيادينا أدوات ترف أكثر بكثير، بما أن استهلاكنا لها ينبغي أن يكون أقل مما كان سابقا.

نفس الأشياء التي تكون نِعمًا ذات عام، تكون كوارث في عام آخر. في كل أمة، هؤلاء الذين يعملون في البستنة والزراعة، يتعلمون بالخبرة أن يديروا أمورهم، بما يحقق أقصى تناسب مع المناخ وثبات أو تقلب الفصول. لو لم تكن هناك رياح عاصفة في إنجلترا، ستكون تسعة أعشار شجرات التفاح فائضة عن الحاجة. اسأل العاملين في البساتين عن لندن، ألا يحصلون على ربح من محصول عادي أكثر مما يحصلون عليه من منتج وفير، ألن يفلس نصفهم لو أن كل شيء يبذرونه أو يزرعونه يصل إلى حد الكمال؟ ومع ذلك يتمنى الجميع الوفرة ورخص الزاد، لكنها غالبا ما تكون كوارث لقطاع كبير من الأمة. لو أن الفلاح لا يستطيع الحصول على ثمن معقول لمحصوله من الذرة، لن يستطيع دفع ما عليه لصاحب الأرض. كثيرا ما كان لدينا حظ طيب في امتلاك وفرة كبيرة، عندما كانت الأمم الأخرى في احتياج. هذا مكسب حقيقي. لكن عندما يكون كل جيراننا مكتفين من الإمدادات، ولا يمكننا تصدير محصولنا من الذرة إلى أي مكان مع تحقيق أرباح، فإن عامين وفيرين، واحدا بعد الآخر، سيكونان ضررا أكبر على الجمهور من ندرة معتدلة. أي رجل محسن لديه رأي طيب عن جنسه، ربما سيتخيل أن العاملين في كافة المهن سيذهبون

إلى أعمالهم بنشاط أكبر، ويتحملون مشقته بمزيد من البهجة، في سنوات الوفرة، مقارنة بتلك السنوات التي تكون فيها الذرة بسعر عال، وبكل جهدهم يمكنهم بالكاد الحصول على الطعام لعائلاتهم. لكن العكس هو الصحيح، واسأل كل التجار الكبار ذوي الخبرة، الذين وظفوا لسنوات عديدة عددا كبيرا من الأيدي العاملة في صناعة الصوف، أو في المعدات، أو في الزراعة؛ وسيخبرونك بالإجماع أن الفقراء هم الأكثر وقاحة، وأن عملهم أقل من أن يُعتمد عليه عندما تكون المؤن رخيصة، وأنهم لا يمكن أن يُنفذ لهم عمل كثير، أو تطاع أوامرهم بدقة، إلا عندما يكون الخبز غالي الثمن.

شخصيتاك: كريتو ويوفرانور شخصيتان جيدتان جدا؛ لكن أكثر ما يعجبني فيهما هو الصبر النموذجي على الاستمرار في صحبة، وتحمل أن يكونا لأسبوع كامل مع مثل هذين الوغدين الناشزين اللذين لا يمكن احتمالهما، كما صورت ألسيفرون ولايسيكليس. أتفق معك أنه وسط التافهين والشهوانيين يوجد الكثير من الأشخاص السطحيين، الذين يسمون أنفسهم مفكرين تحرريين، ويتفاخرون بأن يظن الناس فيهم أنهم غير مؤمنين، دون أن يضعوا أساسا لأي فلسفة على الإطلاق. لكن لم يكن هناك قط مخلوقان في هذا العالم مثل هذين اللذين جعلتهما بطلين للتفكير التحرري. *لا أتحدث عن عدم تدينهما وقلة تقواهما، أو عدم قدرتهما على إثبات ما يؤكداه بصوت عال؛ لأنه يوجد مثل*

هذا *الكثير وسط الفاسقين والمقامرين*. لكن المعرفة والحس السليم والذكاء الذين يظهرهم مفكراك التحرريان أحيانا غير متوافقين مع الجهل والحماقة والغباء الذين يظهراهم أحيانا أخرى. من المستحيل أن رجالا أصحاب مواهب، وأقل قدر من الروح، مهما كانوا في الجانب الخاطئ، يمكن أن يروا أنفسهم مهزومين وعرضة للسخرية ومفضوحين بكل هذا السلام والمرح؛ ولا يمكنني تصور كيف يمكن لأيٍ كان، ما عدا المغرورين الفاضحين، ودون أي إحساس بالخزي، أن يتصرف مثلما يفعل ألسيفرون ولايسيكليس طوال محاوراتك. إنهما شخصان بلا إحساس ولا أخلاق. لو أنه يوجد بين السادة مثل هؤلاء البؤساء المنبوذين الذين يحملون أفكارا كريهة إلى هذا الحد ومدمرة صراحةً للمجتمع، مثل العديد من الأفكار التي يدافع عنها هذان الاثنان، فأنا واثق تماما أنه لا يوجد رجال مهذبون حظوا بتربية حسنة يخاطرون بعرض هذه الأفكار أمام الغرباء بمثل هذه الطريقة الصادمة كما يفعلان. لم يشهد أي إنسان فانٍ مثل هذين المجادلين من قبل، فهما يبدآن دائما بالتبجح والتفاخر بما سوف يثبتانه، وفي كل مجادلة يدعيان الصمود، ينقلبان على ظهريهما، ويُهزمان دائما شر هزيمة، حتى لا يجدان كلمة واحدة أخرى يقولانها، وعندما يتكرر هذا أكثر من عشر مرات، يظلان متمسكين بنفس الغرور والزهو الصفيق اللذين تصرفا بهما في البداية، وعلى الفور بعد كل هزيمة، يطرحان تحديات جديدة،

ظاهريا بنفس اللامبالاة الكبيرة والثقة في النجاح، وكأن شيئا لم يمر بهما من قبل، أو أنهما لا يتذكران شيئا مما حدث. هذه الجرأة في الهجوم، وهذه السرعة في الاستسلام، كما جعلتهما يبديان، لم يلتقيا قط في نفس الأشخاص من قبل.

أعلم يا سيدي أنك في رسمك لهاتين الشخصيتين، صممتهما كوحشين يجب كرههما والامتعاض منهما، وقد نجحت في هذا إلى درجة تثير الإعجاب، على الأقل معي؛ لأني أستطيع أن أؤكد لك أني لم أرَ قط أي متحاورين في نفس المحاورة أو المسرحية أشمئز من سلوكهما ومبادئهما بحماس أكبر مما أحسست تجاههما. وإذا كنت ستقرأ أمثولة النحل بحياد، ستقتنع بهذا، من وصفي للصحبة التي كنت لأختار الحديث معها. لدى تعطفك وتسامحك وقيامك بهذه القراءة، سأثبت لك أيضا كيف يمكن لك ولي أن نساعد ونكون مفيدين أحدنا للآخر كمؤلفين.

أنت تقر بوجود رجال دين فاسدين، لا يستحقون وظيفتهم. وأنا أتوقع أن بعضهم، ممن لا يملكون ثقافة كريتو ولا حس يوفرانور السليم، سيستغلون كتابك ألسيفرون في غرض شرير. بعد أن جعلوا أنفسهم بسلوكياتهم السيئة محتقرين من كل من يعرفونهم، سيسعون لإخراس أفواه كل المعارضين، فقط بمجرد نطق اسم (الفيلسوف الدقيق)، وبعد أن يصدوا الانتقادات التي كانوا يستحقونها، بفضل ذلك الكتاب، سيهينون العلمانيين،

ويطالبون بالشرف والاحترام اللذين يجب تقديمهما فقط لرجال الدين المستحقين. سأتعامل مع هذه الأمور وأقنع نفسي أنك لم تكتب لتبرر أفعال هؤلاء الكهنة الذين يناقضون بأفعالهم تعاليم المسيح، وأنهم قد أساؤوا فهم نواياك، هؤلاء الذين يعيشون هم أنفسهم حياة فاسدة ويطالبون الآخرين بالاحترام نفسه الذي أكدت أنت فقط أنه مستحق لرجال الدين ذوي الجدارة والأخلاقيات الطيبة. وكما أني سأتعامل مع هذه الأمور، فعليك أيضا بنفس الطريقة أن تتولى أمر هؤلاء الفاسقين الوضيعين الذين، اقتداء بنموذجك، سيسعون في أي وقت للانضواء محتمين تحت جناحيّ. لو حدث وأن حاول أي لايسيكليس آخر أن يثبت أنه كلما زاد ما يفعله الرجال من شر، كلما زاد ما يفعلوه من أجل الصالح العام؛ لأنه قيل في أمثولة النحل أنه بدون الرذائل لا يمكن لأي أمة أن تكون ثرية ومزدهرة؛ ستضحك على حماقته، ولو جادل لنفس السبب بأن جرائم الاغتصاب والقتل والسرقة وكل سلوكيات المجرمين يجب تشجيعها، أو على الأقل تمريرها دون عقاب؛ ستثبت له كم كان قصدي بعيدا بشدة عن حماية المجرمين، وتبين له المقاطع العديدة التي أصر فيها على أن العدالة المحايدة لا بد أن تُطبَّق، وأنه حتى لصالح الرجال ذوي العقول الدنيوية، ينبغي أن تعاقَب الجرائم بقسوة. ستخبره بالمثل أني لم أعتقد بوجود شيء أكثر قسوة من تساهل المحلفين وتسامحهم، وكثرة البراءات، ولا تنس أن تخبره أن كتابي احتوى

مقالات عديدة عن السياسة، وأن أغلبه كان بحثا فلسفيا في قوة العواطف، وطبيعة المجتمع، وأنهم لحمقى هؤلاء الذين خرجوا بأي تفسير آخر له.

ألاحظ في محاورتك الخامسة أنك تعتقد أن جموع الناس من المسيحيين لديهم أخلاق أفضل مما كان يملكها الوثنيون القدماء. لقد كانت رذائل البشر غير منفصلة البتة عن الأمم العظيمة، حتى أنه من الصعوبة بمكان تحديد أي شيء بيقين حيال ذلك الأمر. لكن رأيي أن أخلاقيات شعب ما في العموم، وأقصد الفضائل والرذائل التي لدى أمة كاملة، لا تتأثر كثيرا بالدين المعترف به بينهم، بقدر ما تتأثر بقوانين البلد، وتطبيق العدالة، وسياسات الحكام، وظروف الناس. هؤلاء الذين يتخيلون أن الوثنيين كان يتشجعون ويقادون إلى المتع المحرمة عن طريق الأمثلة السيئة التي تقدمها الآلهة التي كانوا يعبدونها، يبدو أنهم لا يميزون بين الشهوات نفسها، تلك العواطف القوية الموجودة في طبيعتنا، والتي تدفع البشر نحو الرذائل، وبين الأعذار التي يختلقونها لارتكابها. لو أن القوانين والحكومة وتطبيق العدالة واهتمام القضاة كانوا هم أنفسهم، وظروف الناس كانت بالمثل هي نفسها؛ سأكون سعيدا بسماع سبب واحد يفسر لماذا ينبغي أن يكون هناك ميل إلى الشهوات الجنسية في إنجلترا، عندما كنا وثنيين، أكثر أو أقل مما يوجد الآن ونحن مسيحيون. السبب الحقيقي للزنا والدعارة، جذر الشر، هو الشهوة. هذه هي

العاطفة التي من الصعب جدا هزيمتها، بينما هي تؤثر علينا. هناك مسيحيون كثيرون، دون شك، يقمعونها بالخوف من الله، ومن عقابه في الآخرة، لكني أعتقد أن الوثنيين الذين انتصروا على هذه العاطفة من منطلق مراعاتهم للفضيلة، كانوا كثيرين بنفس العدد. من بين المسيحيين بالاسم، وهم ليسوا قلة، ثمة من يمتنعون عن الانغماس في هذه العاطفة من منطلق مبادئ أسوأ. وأعتقد أن الأمر كان نفسه بالنسبة للوثنيين. ومع ذلك، هناك آلاف في بريطانيا العظمى يمتنعون عن المتع غير الشرعية، لكنهم لم يكونوا ليصبحوا على هذه الدرجة من الحذر لو لم تمنعهم عنها الكلفة والخوف من الأمراض ومن فقد السمعة. تلك شرور ثلاثة، لا يمكن لكل الأمثلة السيئة من الآلهة أن تداويها.

في كل العصور، أظهر الناس الفضائل والرذائل، التي لا علاقة لدينهم بها، وفي أفعال كثيرة، وحتى أهم الأمور، لم يتأثروا بما يؤمنون به من حياة مستقبلية أكثر مما تأثروا باسم الشارع الذي يعيشون فيه. عندما يبدي الناس التصاقا كبيرا بالدنيا ومتعها، ويكونون باردين جدا بل ومهملين فيما يتعلق بالواجبات الدينية؛ فمن السخيف أن نعزو خصالهم الطيبة لمسيحيتهم. ستأذن لي يا سيدي في أن أسهب قليلا في هذا الموضوع، وأوضح مقصدي في شخصية أو اثنتين سأقوم برسمهما.

ليبيدوس، رجل ذو حس سليم، وهو أعزب لا ينتوي الزواج أبدا.

هو أبعد من أن يكون عفيفا، لكنه حريص في علاقاته الجنسية. هو محب للطرب والمرح، يكره الوحدة، ويفضل أن ينخرط مع كل صحبة تقريبا عن أن يكون وحيدا. مائدته عامرة دائما، وليس هناك من رجل يتعامل بلطف أكبر، ويبدو أنه لا يسعد قط أكثر منه عندما يستضيف أصدقاءه. لديه ثروة عظيمة جدا، لكنه في نهاية العام لا يدخر إلا قليلا من دخله الكبير. رغم هذا، هو يعيش في نطاق له حدود، ويعتقد أنه لا يوجد شيء أكثر بؤسا من ألا يكون المرء ثريا. هو رجل ذو شرف، ولديه تقدير عال للسمعة. هو عضو في الكنيسة الرسمية، ويذهب إليها عادة مرة كل يوم أحد، لكنه لا يقترب منها أبدا في أي وقت آخر. وبالمثل مرة كل عام، إما في عيد الفصح أو عيد الخمسين، يتناول القربان المقدس. أما بقية العام، فالمتعة واللطف هما همه الأساسي. يبدو أنه قليل التأثر بالدين، ونادرا ما يتحدث عنه، سواء مؤيدا أو معارضا. والآن لو أن رجلا بعد أن وزن جيدا ودرس هذه الشخصية سُئل عما يعتقده في ليبيدوس، بالنسبة لمبدئه ودوافع تصرفاته، ويقول إن رأيه هو أن هذه المؤانسة، وهذا الطبع الكريم والآسر لدى ليبيدوس مبعثه كونه مسيحيا وليس وثنيا أو مفكرا متحررا؛ فقد يدعى هذا بتفسير مترفق، لكني لا أستطيع أن أفكر فيه قط كحكم جيد. لكن ليكن الأمر على هذا النحو، لو أن شخصا ككريتو أو كيوفرانور اهتم بالدفاع عن مثل هذا الرأي والوقوف إلى جانبه، فأنا مقتنع تماما أنه سيكون من السهل عليهما قول الكثير جدا

في صالحه؛ حتى أنه لن يغدو الأمر صعبا فقط في دحضه، لكن مناقشته نفسها ستكون مهمة كريهة للغاية.

نيكانور رجل وقور جدا، نادرا ما يفرط في الشراب، لكنه لا يخلو قط من النبيذ ومن أنواع متعددة، وهو كريم جدا فيه مع أصدقائه، وكل من يأتي لزيارته. لكن مهما فعل أصدقاؤه، دائما ما يملأ كأسه باقتصاد كبير، ونادرا ما يشرب أكثر من ربع لتر في الجلسة. لا يذهب أبدا إلى أي حانة إلا في أمر يتعلق بالعمل، وعندما يكون وحيدا، تكون البيرة الخفيفة أو الماء هي المشروبات التي يختارها. نيكانور، الذي كان دائما رجلا مجتهدا، أصبح ثريا عن طريق تجارته، لكنه أبدا لا يعرف الكلل، ويبدو أنه لا يعرف أي متعة أكبر من الحصول على المال. هو لا يخلو من الطموح، وهو نائب الدائرة الانتخابية التي يعيش فيها، ويتمنى أن يكون حاكما للإقليم قبل أن يموت. مرة واحدة في حياته كان سكرانا، لكن هذا كان أثناء عقده لصفقة حصل منها على خمسمائة جنيه في صباح واحد. فلنفترض أن هذه الشخصية يجري فحصها بالمثل، وأن رجلا سيرى أن يؤكد على كون اجتهاد وثروة نيكانور بسبب حبه للنبيذ، وسيتخيل المرء أنه لن يكون من الصعب دحض رأي هذا الرجل، وإثبات أن ما طرحه حكم خاطئ، إن لم يكن ظنا سخيفا.

لأنه لو كان نيكانور يحب النبيذ، كان سيشرب منه كمية أكبر. هو لديه ما يكفي من الثراء كي يشتريه، بل لديه الكثير

منه، رغم أنه نادرا ما يلمسه أصلا عندما يكون وحيدا. هو لا يمنعه عن الآخرين، ومن المستحيل إن كان يحب النبيذ أن يكتفي بملء أكواب صغيرة لنفسه بينما يرى الآخرين يشربون كؤوسا مترعة على حسابه باستمتاع. ربما تعتقد أني أسهبت في الحديث بالفعل كي أثبت شيئا واضحا كالشمس. لكن إذا كان حب النبيذ يتمتع بالسمعة الطيبة ويُعد ضروريا من أجل السعادة الحقيقية مثلما هو الحال في أن تكون متدينا، ومال رجل لديه خصال يوفرانور كي يكون محاميا عن نيكانور، ويجادل بأن حب النبيذ كان هو الدافع لاجتهاده، بالرغم من كل المظاهر العكسية، أقول لو أن رجلا مال للمجادلة بهذا، وكانت لديه عقلية يوفرانور، فلعله سيقدم استعراضا عظيما من أجل عميله، دون ثقافة كريتو، وبالتأكيد سيربك خصومه؛ إذا كان لديه خصوم طيِّعون مثل ألسيفرون ولايسيكليس يتعامل معهم. سيقول يوفرانور: هيا أجبني يا ألسيفرون؛ أليس من الواضح أنه كلما زاد ما في جعبة الرجل من مال، كلما زادت قدرته على شراء النبيذ؟ وسيجيب ألسيفرون: لا أستطيع أن أنكر هذا. وهنا ستبدأ المحاورة.

يوفرانور: عندما تكون هناك أدلة واضحة على أن رجلا ما قد شرب حتى ثمل، أتنكر أن يكون هذا صحيحا؟

ألسيفرون: لم أكن لأعارض أبدا مسألة حقيقية.

يوفرانور: هل ستحاول أن تثبت من كون رجل قد شرب حتى

ثمل أنه لا يحب النبيذ؟

ألسيفرون: أقر بأني لم أكن لأفعل هذا.

يوفرانور: أنت أيها المفكر الحر، يا من بحثت بدقة شديدة في الطبيعة البشرية، هل تعتقد أن هناك قدرة في الرجل يستطيع بها أن يغوص في قلوب الآخرين، ويعرف أكثر أفكارهم سرية عن يقين؟

ألسيفرون: لا أعتقد بوجود شيء كهذا.

يوفرانور: عندما تكون الأفعال طيبة وجديرة بالثناء في حد ذاتها، وهناك دافعان مختلفان من الممكن أن تنطلق منهما، أحدهما شريف جدا، والآخر مشين، أيهما أكثر خيرا: أن تعزو هذه الأفعال إلى الدافع الأول أم الثاني؟ علامَ التردد يا ألسيفرون؟ ألن يقول أي رجل مهذب يتحدث إلى رجل آخر في وجهه أنه يرى أفعاله منطلقة من ذلك الدافع الذي يجلب إليه أكبر الشرف؟

ألسيفرون: أعتقد هذا.

يوفرانور: آه يا ألسيفرون! من موافقاتك يمكنني أن أثبت لك كيف يجب أن نحكم على نيكانور؛ وأنه من المضر للغاية أن ننسب جده واجتهاده والمتاعب التي يتجشمها كي يحصل على المال إلى لا شيء غير حبه للنبيذ. قد يقول الفلاسفة الدقيقون ما يشاؤون، لكن لا يمكن شراء النبيذ بدون مال، وقد اعترفت أنت

بنفسك أنه كلما زاد ما يملك الرجل من مال، كلما زادت قدرته على شراء النبيذ. هذه الأشياء واضحة بذاتها؛ ما يختاره الإنسان، الذي يملك الحرية لفعل ما يشاء، لا بد أن يفضله على ما لا يختاره. ولماذا ينبغي أن يشرب نيكانور النبيذ أكثر مما يفضل أن يأكل الجبن، إذا لم يكن يحبه؟ مسألة أنه يشربه واضحة؛ وكل أصدقائه ومعارفه يمكنهم أن يشهدوا على ذلك، فقد كانوا شهود عيان عليه؛ وبالتالي هو يحبه. ومسألة أنه يحبه بالتأكيد إلى حد بعيد واضحة؛ فقد غاب عن وعيه من أجله، وشرب النبيذ حتى ثمل.

وإذ يخرس ألسيفرون من قوة هذه الحجج، ربما سيقول لايسيكليس إنه لا يمكنه الاستسلام عند هذه النقطة كما فعل ألسيفرون، لكنه غير مستعد للحديث عنها الآن، وبالتالي يرغب في أن يتوقفوا عن الحوار. وهكذا سينتصر يوفرانور على خصميه، وستنتهي المحاورة.

حال المقارنة بين هاتين الشخصيتين، من الواضح أن نيكانور كان رجلا غير مسرف، وأن الدوافع التي حفزته على الاجتهاد كانت حبه للمال ورغبته في العظمة الدنيوية. وبتأمل المتعة القليلة التي بدا دائما أنه يجدها في الخمور القوية، وتعطشه المعروف للمكسب، من المستحيل منطقيا تفسير شربه المفرط ذات صباح إلا بأن نعزوه إلى عاطفته الحبيبة؛ حب المال؛ الذي جعله يخاطر بفقد وقاره بدلا من أن يفقد الامتياز الذي توقعه

من الصفقة التي كان يعقدها. لذلك يتضح من هذه الشخصية أن حب النبيذ، سواء اعتُبر حقيقا باللوم أو مستحقا للثناء، لم يكن له تأثير على أفعال نيكانور، وبالتالي فإنه، رغم أنه كان قليلا في حد ذاته، لم يكن ليقلص قط من اجتهاده.

في ليبيدوس نرى معجبا مغرما بالصحبة، ومحبا حصيفا لنفسه، يستمتع بأكبر قدر يمكنه من العالم، دون أن يتنازل عن رأي العالم الطيب فيه. وأي رجل ثري ذو مزاج معتدل يمكنه أن يقوم بكل هذا في أي بلد مسيحي، منطلقا من مبادئ لا تزيد عن الكبرياء والتعقل الدنيوي، رغم أنه قد يكون قليل التدين أو غير متدين على الإطلاق.

أي قارئ متعجل ومتهور سيدعو كل هذا بالحماقة، ويقول لي إني أتعارك مع ظلي، وإنه من خلال شخصية نيكانور لن يتخيل أي ابن آدم أن اجتهاده ورغبته في الثراء يمكن أن ينطلقا من حبه للنبيذ ويكونا بسببه. لكني أصر على هذا، ويجب أن تقر بهذا يا سيدي، أنه لن تكون هناك سخافة أكبر من محاولة إثبات هذا من تلك السخافة الماثلة في إرجاع سبب المؤانسة والسلوك الكريم لدى ليبيدوس إلى كونه مسيحيا. كل الرجال الذين يولدون لآباء مسيحيين، ويتربون وسط مسيحيين، يُعتبرون دائما مسيحيين هم أنفسهم، طالما أنهم راضون بذلك، ولا يتبرأون من التسمية. لكن إذا لم يكن الناس متأثرين بصورة ملموسة

بدينهم، في أفعالهم وسلوكهم، لا توجد ميزة في كونك مسيحيا أكثر من تلك الموجودة في كونك محمديا أو وثنيا. لو أن رجلا ترك شركة ترأس مجموعة من الحرفيين المهرة في مهنة شاقة متعبة، وهو لم يكرس وقته للعمل بها من قبل ولا تابعها من بعد أبدا، لا يمكن أن نقول على مثل هذا الشخص، أيا كان الاستغلال الآخر الذي يقوم به لحريته، أنه كان منتميا أو قام بهذه الوظيفة المرهقة الشاقة. إن رجلا جرى تعميده في طفولته، قد يخضع لكل المظاهر الخارجية للدين، وإذا كان يحب سمعته، لن يكون مذنبا قط بأي شر مشين. لكن لو كان قلبه طوال هذا الوقت، وهو الأمر غير المستحيل، متعلقا بشدة بهذه الدنيا، لو كان لديه تقدير للمتع الحسية أكبر بكثير مما يحمل للمتع الروحية، وواصل طريقه في حياة شهوانية لسنوات عديدة، دون توبة.. أقول إن رجلا يفعل هذا لا يمكن، رغم خضوعه لكل الطقوس والمناسك وتحمله للتحكم الكبير في مجلس الكنيسة، أن يكون مسيحيا حقيقيا أكثر مما يمكن لتاجر الكتان أن يكون حدادا حقيقيا؛ رغم أنه كان خاليا من صحبة الحدادين، وكان رجلا ذا تجارة بينهم.

أنا ميال لتصديق أن الأشخاص الضعفاء الحمقى قد يشكلون هؤلاء القضاة المخطئين، كما أشرت من قبل، دونما سبب أسوأ من قلة الكفاءة والحماقة المجردة. لكني عندما أرى رجالا ذوي حس سليم للغاية ومعرفة كبيرة مذنبين بذلك، لا يمكنني تجنب التفكير في أنهم يفعلون ذلك عن قصد، ولأنهم يجدون مصلحتهم

في ذلك. من المؤكد أنه عندما يؤخذ الأمر كشيء مسلم به أنه كي تكون مسيحيا يكفيك الرضا بأن تدعى هكذا، وتحضر العبادات الظاهرية لمذهب أو آخر، فإن هذا يوفر على رجال الدين قدرا كبيرا من المتاعب، من الأصدقاء وكذلك من الأعداء. لأن تهدئة وإرضاء كل الضمائر الموسوسة عمل شديد المشقة مثله مثل الكتابة دفاعا عن المعجزات.

السبب يا سيدي في أني تحدثت كل هذا الحديث عن ذلك الموضوع هو أنه وسط هؤلاء الذين يُبدون ظاهريا أكبر غيرة على الدين والإنجيل، أني نادرا ما أرى أي واحد يعلمنا، إما بالمبدأ أو بالقدوة، صرامة السلوكيات التي تتطلبها المسيحية. يبدو أنهم أكثر حرصا بكثير على التسمية من حرصهم على الشيء نفسه؛ كما لو أنه عندما يكتفي الرجال بالاعتراف بأنهم مسيحيون، فلا أهمية كبيرة للمؤهلات التي يجب أن تجعلهم هكذا. عندما ألقيت مؤخرا نظرة على سلوك بعض الناس، الذين لن تُذكر أسماؤهم، ذكَّروني بالماسونيين الأحرار. كما تعرف فإن هؤلاء مقسمون إلى جماعات عديدة، وكل جماعة لديها مقر خاص بها، وكل مقر له أستاذ، وعلى كل هؤلاء الأساتذة يوجد أستاذ كبير. بعضهم يلتقون مرة في الشهر، وبعضهم الآخر لا يلتقون بهذه الكثرة، يتظاهرون بالغموض، ويأكلون ويشربون معا، ويستخدمون طقوسا عديدة خاصة بهم هم بوقار كبير، ومع كل هذه الضجة التي يصنعونها، لم أستطع قط أن أعرف حتى الآن أنهم يملكون شيئا ليفعلوه، إلا

أن يكونوا ماسونيين أحرارا، يتحدثون جيدا عن شرف جماعتهم، ويحتقرون أو يشفقون على كل من ليس عضوا فيها. خارج اجتماعاتهم، يعيشون ويتحدثون مثلهم مثل بقية الرجال، ورغم أني كنت في صحبة العديد منهم، أعترف أني لا أستطيع قط أن أعرف من يكون ماسونيا حرا ومن ليس كذلك إلا إذا قيل لي.

أعرف يا سيدي أنك تحب الأمثولة، وعلى ذكر هذا فقد سعدت للغاية بما تقوله في صفحة (كذا) من مجلدك الأول؛ حيث تسخر عن حق وتفضح هؤلاء المتحررين الذين يتظاهرون بكونهم حماة التحرر والمِلكية. أستئذنك، لمصلحة القراء الآخرين، أن أنقل المقطع:

يقول كريتو: عندما أسمع هاتين الكلمتين من فم الفيلسوف الدقيق، أتذكر (تيستي دي فيرُّو)[37] في روما. يبدو أن قداسته عندما لم تكن لديه السلطة لتخصيص معاشات من الإقطاعات الكنسية الإسبانية إلى أي أحد غير مواطني إسبانيا، احتفظ دائما في روما بشخصين إسبانيين، أسماهما (تيستي دي فيرُّو)، لديهما الحق في كل هذه المعاشات، لكنهما لا يستفيدان منها، حيث كانت تذهب إلى الإيطاليين.

37- بالإيطالية في الأصل وتعني الرأس الحديدية، والمقصود بها هنا غالبا باندولف الملقب بالرأس الحديدي، (توفي مارس 981) كان نبيلًا من أعلام الحرب اللومبارد ضد البيزنطيين والمسلمين للسيطرة على جنوب إيطاليا في القرون التالية لسقوط السلطتين اللومباردية والكارولينجية في شبه الجزيرة الإيطالية.

كما يمكن أن نرى كل يوم، ثمة أشياء ومفاهيم توضع على حساب التحرر والمِلكية، وهي في الحقيقة لا تملك ولا يُقصد منها أن تملك أي نصيب منهما. ماذا! هل من المستحيل لرجل أن يكون مسيحيا، لكن لا بد أن يكون عبدا؛ أو أن يكون رجل دين، لكن لا بد أن يحمل مبادئ المحقق؟ هذا سؤال سديد تماما، وينطبق على نحو جيد ومثير للإعجاب. أشكرك عليه. أعرف كثيرا من رجال الدين الذين يبدو أنهم مغرمون جدا بالدنيا، ويسعون دائما للقبض على الثروة والسلطة، وكلما سمعت أحدا منهم يذكر اهتمامه بالدين، والسعادة الروحية للآخرين، كما يفعلون غالبا، سأتذكر دائما قصة كريتو، وأضحك من قلبي، ولا أزيد عن ذلك قولا. لأني لو قلدته في التعجب كل مرة أرى فيها الأشياء والمفاهيم توضع على حساب الدين والسعادة الروحية للآخرين، وهي في الحقيقة لا تملك ولا يُقصد منها أن تملك أي نصيب منهما؛ فلن أتمكن أبدا من متابعة أي عمل آخر غير الهتاف: ماذا! هل من المستحيل أن يجري الاهتمام بالدين المسيحي إلا إذا ركب الكهنة عربات تجرها ستة خيول، أو يجري الاهتمام بالسعادة الروحية لأهل الدنيا، دون الهيمنة الدنيوية والسلطة المفرطة لدى رجال الإكليروس؟

أمثولتي، كما ترى يا سيدي، ليست إلا نسخة من أمثولتك، وبالتالي لا يمكن أن تحمل نفس الجدارة. لا يمكنني أن أعرف إلى أي حد ستعجبك؛ لكني أتخيل أن أغلب قرائي بالإضافة إلى ذلك

سيكون رأيهم أنه إذا كان قداسته لا يحقق من عبديه الإسبانيين أي استفادة أكبر مما يمكن للقضية، التي تناصرها أنت، أن تحققه من شخصيتيك هنا، سيكون من الصعب أن يستحق الأمر عناء الإبقاء عليهما أكثر من ذلك.

وهنا يا سيدي سأستئذنك، وكلي توقع وأمل، أنه فيما يتعلق بي سأجد تغيرات كبيرة في طبعتك التالية. ولإمدادك بأكبر عدد من المواد التي يمكنني أن أوفرها لك بسهولة من أجل هذا الغرض، سأملأ ما بقي لي من مساحة باقتباس آخر من أمثولة النحل[38]، يبدأ في صفحة (كذا). لو كان ورقي يتحمل، وأمكنني إضافة صفحة أو صفحتين أخريين، لرأيتَ كيف أسيء فهمي على نحو شرير فيما أقوله عن حريق لندن:

من المؤكد أنه كلما كان لدى الإنسان رغبات أقل وكلما قل ما يشتهيه؛ كلما كان مريحا لنفسه أكثر. وكلما زاد نشاطه لتوفير احتياجاته، وقل ما يتطلب منه أن يسهر عليه؛ كلما كان محبوبا أكثر في عائلته وأقل إثارة للمشاكل. وكلما زاد حبه للسلام والوئام وكلما زاد برُّه وإحسانه نحو جيرانه وكلما زاد تألقه بالفضيلة الحقيقية؛ فلا شك أنه سيكون مقبولا بالنسبة ذاتها لدى الرب والعبد. لكن دعونا نكن دقيقين، ما الفائدة التي يمكن

38- الاقتباس الذي ينهي به ماندفيل رسالته من مقاله الطويل (بحث في طبيعة المجتمع) الذي كان ينشره مع مقالات أخرى في طبعات لاحقة من أمثولة النحل، وترجمة المقال كاملة في كتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة).

أن تكون لهذه الأمور، أو ما هي المصلحة المادية التي يمكنها تحقيقها لزيادة ثروة ومجد الأمم وعظمتها العالمية؟ إنه ذلك المنافق الحسيّ من رجال الحاشية الذي لا يضع حدا لإسرافه في الترف، والعاهرة المتلونة التي تبتكر طرقا جديدة كل أسبوع، والدوقة المتعجرفة التي تحاكي أميرة في الحشم والمتع وفي جميع سلوكها، والخليع المبذر والوارث المسرف اللذان يبعثران مالهما من حولهما دون فطنة أو تبصر ويشتريان كل شيء تقع عيونهما عليه ليدمراه أو ليبدداه في اليوم التالي، الوغد الطامع والحانث باليمين الذي اقتنص ثروة كبيرة من بين دموع أرملة وأيتام، وترك المال للمسرفين كي ينفقوه؛ إن هؤلاء هم الفريسة والطعام المناسب لليفياثان[39] تام النمو، أو بكلمات أخرى تلك هي الحالة الفاجعة للمسائل الإنسانية التي نقف إزاءها في حاجة للأوبئة والوحوش التي ذكرتها للقيام بكل أشكال العمل التي يمكن لمهارات البشر أن تخترعها لكي تحصل على رزق شريف للحشود الهائلة من الفقراء العاملين المطلوبين لصنع مجتمع كبير، ومن الحماقة تخيل أن الأمم العظيمة والغنية يمكنها أن تبقى وأن تكون قوية ومهذبة معا بدونهم.

أنا أعترض على البابوية بنفس القدر الذي اعترض به (لوثر) و(كالفن) أو الملكة إليزابيث نفسها، لكني أؤمن من قلبي بأن

39- الليفياثان وحش بحري أسطوري ورد ذكره في التوراة مطابقا أحيانا للحوت أو التمساح وفي أحيان أخرى للشيطان.

حركة الإصلاح كانت بالكاد أكثر فعالية في جعل الممالك والدول التي اعتنقتها أكثر ازدهارا من بقية الأمم مقارنة بالاختراع السخيف والغريب للتنورات المطوَّقة والمبطَّنة. لكن إذا أنكر عليَّ ذلك أعداء السلطة الكهنوتية فأنا متأكد على الأقل من أن الحركة الإصلاحية منذ بدايتها الأولى وحتى يومنا هذا لم توظف أيدي عاملة كثيرة -ماعدا الرجال العظام الذين قاتلوا من أجل نعمة الإنسان العلماني تلك وضدها- وأقصد أيدي عاملة مخلصة كادحة بقدر ما فعل ذلك التطور البغيض للكمالية الأنثوية التي ذكرتها في سنوات قلائل. الدين شيء والتجارة شيء آخر. فذلك الذي يسبب أكبر المشاكل لآلاف من جيرانه ويخترع أكثر المصنوعات إرهاقا هو -عن صواب أو عن خطأ- أكبر صديق للمجتمع.

يالها من ضجة تلك التي تحدث في بقاع عديدة من العالم قبل أن يمكن إنتاج قطعة من القماش الأحمر أو القرمزي، أيُّ كثرة من الحرف والصُنَّاع يجب توظيفهم! ليس فقط هؤلاء الظاهرون مثل ممشطي الصوف والغزَّالين والنسَّاجين وعمال الأقمشة والمنظفين والصباغين والمُنظمِّين وعمال الجرّ والعتَّالين، لكن هناك آخرين أكثر بُعدا وقد يبدون دخلاء على الصناعة مثل بناة الطواحين وصانعي الأواني الصفيح والكيميائيين والذين هم جميعا ضروريون بقدر ما هم يمثلون عددا كبيرا من الحرف الأخرى المطلوبة للحصول على الأدوات والأواني والتجهيزات الأخرى الخاصة بالمهن التي تم ذكرها بالفعل، لكن كل هذه

الأمور تتم في الوطن، وربما تُؤدَّى دون متاعب أو مخاطر زائدة، أما الجانب الأكثر إثارة للخوف فباقٍ لما وراء ذلك؛ عندما نتأمل في الكدّ والمخاطرة اللذين سيتم تكبدهما خارج البلاد: تلك البحار الواسعة التي سيتوجب علينا اجتيازها، والمناخات المختلفة التي سنتحملها، والأمم العديدة التي سيتوجب علينا أن نكون شاكرين لها على مساعداتها. من الصحيح أن إسبانيا وحدها قد تمدنا بالصوف اللازم لصنع أفضل الأقمشة، لكن أي مهارة وعناء، أي خبرة وبراعة تتطلبها صباغته بهذه الألوان الجميلة! إلى أي نطاق واسع تمتد العقاقير والمكونات الأخرى المتناثرة عبر الكون التي ستلتقي في غلاَّية واحدة! حجر الشبَّة نملكه نحن بالفعل في وطننا، والأرجول أو رواسب البوتاسيوم يمكننا الحصول عليها من نهر الراين، وحامض الزاج الكبريتي من المجر، وكل هؤلاء في أوروبا، لكن لكي نحصل بعد ذلك على الملح الصخري بكميات فنحن مضطرون إلى الذهاب بعيدا حتى جزر الهند الشرقية. صبغة القرمز -غير المعروفة للقدماء- ليست أقرب إلينا، رغم أنها في جزء مختلف تماما من الأرض. من الصحيح أننا نشتريها من الإسبان لكن لكونها ليست منتجا خاصا بهم فإنهم يضطرون إلى جلبها لنا من أبعد ركن في العالم الجديد في جزر الهند الغربية. في الوقت الذي يُشوى فيه بحارة كثيرون في الشمس ويتصببون عرقا من حرارة الجو في الشرق والغرب من حولنا، هناك مجموعة أخرى منهم تتجمد في الشمال

كي تجلب لنا البوتاس من روسيا.

عندما نتعرف تماما على كل أشكال الكدّ والعمل، والصعاب والمصائب التي لابد من اجتيازها لبلوغ الغاية التي أتكلم عنها، وعندما نضع في اعتبارنا المجازفات والمخاطر التي تجرى في هذه الرحلات البحرية، وأن القليل منها لا يتم إلا على حساب -ليس فقط صحة وسعادة وإنما حتى- حياة الكثيرين. أقول إننا عندما نتعرف على الأشياء التي ذكرتها ونوليها الاعتبار الواجب فمن الصعوبة بمكان أن نتصور طاغية ما بهذا القدر من اللاإنسانية والخلو من الإحساس بالخزي، حتى أنه برؤية الأمور بنفس وجهة النظر سيطلب مثل هذه الخدمات الرهيبة من عبيده الأبرياء، وفي نفس الوقت نجرؤ على الاعتراف بأنه لم يفعل ذلك لسبب آخر غير الرضا البشري الذي يحسه من الحصول على ثوب مصنوع من القماش الأحمر أو القرمزي. لكن إلى أي مستوى من الرفاهية يجب أن تصل أمة ما حيث يمكن ليس فقط لحاشية الملك وإنما كذلك لحراسه، بل وجنوده الخصوصيين أن يحصلوا على تلك الرغبات الماجنة!

لكننا لو عكسنا المشهد ونظرنا إلى كل هذه الجهود كأفعال اختيارية كثيرة للغاية، تخص مهنا ووظائف مختلفة يتربى البشر عليها من أجل الحصول على أرزاقهم، والتي يعمل فيها كل واحد من أجل نفسه، أيا كان حجم العمل الذي يبدو أنه يؤديه

من أجل الآخرين، إذا وضعنا في اعتبارنا أنه حتى البحارة الذين يمرون بأشد الصعاب وبمجرد أن تنتهي رحلة بحرية أو حتى بعد تحطم السفينة فإنهم يتطلعون ويلتمسون عملا في سفينة أخرى، أقول أننا لو تأملنا ونظرنا في هذه الأمور بمنظور آخر فسنجد أن عمل الفقراء بعيد للغاية عن أن يكون حِملا أو فرضا عليهم، أن الحصول على عمل هو نعمة يُصلُّون من أجلها في مناجاتهم للسماء، وأن نواله بالنسبة لأغلبيتهم هو دليل الاهتمام الأكبر من كل هيئة تشريعية.

النهاية

"أقذع ما كُتب من تحليلات للطبيعة البشرية."

ويل ديورانت

يضم هذا الكتاب ثلاثة أعمال للكاتب برنارد ماندفيل: قصيدته الشهيرة (أمثولة النحل) التي أثارت ضده هجوما عنيفا ودفعته لكتابة الكثير من مقالاته ودراساته ردا على هذا الهجوم، والعمل الثاني هو مجموعة من الأمثولات التي كتبها تحت عنوان (في ثوب إيسوب) حيث يكتب ماندفيل تسعة وثلاثين أمثولة أو حكاية خرافية على غرار خرافات إيسوب. أما العمل الثالث فهو (رسالة إلى ديون) وهو آخر ما نشره ماندفيل، وجاءت هذه الرسالة المطولة ردا على كتاب بعنوان (ألسيفرون، الفيلسوف الدقيق) كتبه الأسقف بيركلي تحت اسم مستعار: (ديون)، والذي حملت إحدى محاوراته هجوما عنيفا على ماندفيل وكتابه أمثولة النحل. يدافع ماندفيل هنا عن نفسه وعن كتابه ويوضح أفكاره ومقاصده بطريقته الساخرة واللاذعة والجادة كذلك.

برنارد ماندفيل: فيلسوف وعالم اقتصاد سياسي وكاتب ساخر هولندي. وُلد في روتردام (وفي رواية أخرى دوردريخت) في الخامس عشر من نوفمبر عام 1670، وعاش أغلب حياته في انجلترا وكتب ونشر معظم أعماله بالإنجليزية. وقد توفي في عام 1733 بعد إصابته بالأنفلونزا، تُرجم له كتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) وصدر عن دار صفصافة عام 2014 وحصلت ترجمة الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية عام 2017 وصدرت طبعة ثانية منها في مشروع مكتبة الأسرة بالأردن.

ISBN 978-977-821-228-0

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

9 789778 212280